مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

من أوراق الشاعر

إبراهيم طوقان

المتوكل طه

من أوراق الشاعر إبراهيم طوقان

المتوكل طه

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

2002

من أوراق الشاعر

إبراهيم طوقان

المتوكل طه

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بفلسطين عام ١٩٩٨ بعنوان: «الكنوز... ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان» بعدد محدود من النسخ

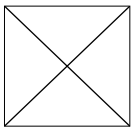

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحثان

بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عـدنـان بـلـبل الجـابـر

و

مـــاجـــد الحـــكـــواتي

الصف والإخراج والتنفيذ:

محمد العلي

أحـــمـــد مـــتـــولي **أحـــمـــد جـــاسم**

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

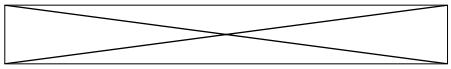

تلفون: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < babtainprize@hotmail.com >

2 0 0 2

تصدير..

استعادة إبراهيم طوقان

في هذه الأيام المربكة حيث تُعتقل الأرض الفلسطينية بكاملها، ويُطَلّ الدم الفلسطيني، ويتطوع البعض لإلغاء الذاكرة العربية، وقصّ أجنحة المستقبل، وتدجين الإنسان العربي ليتحول إلى مجرد مخلوق بيولوجي، وحيث يلتقي الغضب والعجز، والقديسون والفريسيون، تصبح فلسطين هي الساحة التي يتقرّر فيها مستقبل العرب، وتفترق فيها الطرق، إلى طريق سهل يرى في الموت إلغاء للحياة، وطريق صعب يرى الموت الطريق الوحيد إلى ولادة جديدة.

وفي هذه الأيام الصعبة – أيام الرماد والجمر – حيث يراد لنا أن نعدّ الشهادة إرهاباً، والإصرار على الحق غباء، والرضا بما تيسّر حكمة، فإن استدعاء إبراهيم طوقان إلى الذاكرة العربية يصبح ضرورة ماسّة لمن يتطلّعون إلى إيقاف هذا الانهيار في الرؤية، والعجز في الإرادة. لم يكن إبراهيم طوقان شاعراً محترفاً غايته المثلى اقتناص الكلمة الجميلة في فضاء منعزل، بل كان – وقد ولد في رحم مأساة فلسطين – الابن الشرعي لهذه المأساة بكل أبعادها، لقد حمل منذ تفتح وعيه الجرح الفلسطيني، وغدا الناطق باسم هذا الجرح بكل حرارته وألمه الممضّ، وتحولت الكلمات لديه إلى رصاصات تنطلق بكل غضب المقهور، وصلابة الفدائي إلى صدور الأعداء في الداخل والخارج.

لم يجد إبراهيم أمامه – بجسمه المنهك بالأمراض – سوى الكلمة ليشارك بها في معركة شعبه، ولم يكن إبراهيم، والمعركة هي معركة وجود، يؤمن بأنصاف الحلول، أو بالكلمات الخجولة، بل كان حاداً كالسيف، وواضحاً كضوء الشمس، كل شيء أو لا شيء، المقاومة هي الرد الوحيد على الاغتصاب، الشهادة هي أعلى درجات المقاومة، بطاقة الانتماء إلى الوطن هي التضحية في سبيله، هذا ما نتعلّمه من قصائد إبراهيم طوقان التي

عاش على وقع أناشيدها جيل كامل، يتسلّح بها في مواجهة القمع والإحباط والتخاذل، ونحن ما نزال بحاجة إلى صوتها الصارخ في هذه المرحلة التي يُطلب منا فيها الصمت على جريمة العصر، وإلى لهبها المحرق في الوقت الذي توضع فيه الأرض – ببرودة قاتلة – على طاولة المساومة، ولكن إبراهيم طوقان الذي سقط في عنفوان شبابه لم يكن لديه الوقت الكافي ليجمع نتاجه الثري واكتفى قبل وفاته باختيار بعض القصائد التي أعدّها للنشر في ديوان لم ير النور إلا بعد وفاته. هذا الديوان وإن احتوى أهم قصائده، فقد أغفل الكثير من شعره الذي نشر في الدوريات العربية أو بقي ضمن أوراقه المخطوطة، وهناك جانب مهم آخر من نتاج طوقان الأدبي هو الجانب النثري، فقد كان إبراهيم بالإضافة إلى كونه شاعراً كبيراً ناثراً مبدعاً، نشر الكثير من المقالات في الدوريات العربية، وأذاع الكثير من الأحاديث من إذاعة القدس، وخطّ المئات من الرسائل إلى أقربائه وأصدقائه، وبقي هذا التراث الخصب حبيساً في خزائن المكتبات العربية، أو في الأدراج لدى الأهل والأصدقاء، لا يعرف عنه الجيل الجديد شيئاً.

وقد قيّض الله لهذه النتاج المجهول من تراث طوقان ، الشاعر «المتوكل طه» الذي وجد أن من واجبه الوطني والقومي أن يبرز للنورهذه الفرائد التي أبدعها إبراهيم طوقان، والتي تكمل ملامح شخصية طوقان الفنية والإنسانية.

وقد بذل المتوكل مجهوداً كبيراً لاستخلاص هذه النصوص المجهولة من مظانها، فأخرج من أوراق الشاعر الخاصة لدى شقيقته الشاعرة فدوى طوقان نصوصاً شعرية جديدة، ورسائل شخصية بعث بها الشاعر إلى شقيقته وإلى بعض أقربائه، وحصل من الدوريات الفلسطينية والسورية والمصرية على كثير من المقالات التي نشرت للشاعر وبعض النصوص الشعرية، كما حصل على عدد من أحاديثه التي كان يلقيها من إذاعة القدس، وقد نشر المتوكل طه هذه النصوص المجهولة في كتاب بعنوان «الكنوز: مالم يعرف عن إبراهيم طوقان» صدر عن مؤسسة الأسوار في عكا عام ١٩٩٨ ونظراً لأهمية هذا الكشف الأدبي، فقد ارتأت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري إعادة نشر هذا الكتاب – بإذن من مؤلفه – تحت عنوان جديد هو «من أوراق إبراهيم طوقان» وبهذه الخطوة يتمكن

القارئ العربي – لأول مرة – أن يحيط بمعظم نتاج إبراهيم طوقان الأدبي، وأن تتبدّى له شخصيته كاملة في جوانبها المختلفة، شخصية الشاعر الساخر الذي يهوى الدعابة والمرح، وشخصية الأخ الودود والصديق المخلص الذي يسدي نصحه وإرشاده لمن يحيط به، وشخصية المثقف الذي يتابع ما تنشره المطابع أولاً بأول، وشخصية الناقد الذي يتعامل مع التراث الشعري العربي بحساسية مرهفة، وبصيرة نافذة.

إن استعادة إبراهيم طوقان إلى الذاكرة العربية بفضاءاته الإبداعية المتنوعة، وبشخصيته الفنية الرحبة في هذه الظروف بالذات هو واجب قومي تقوم به مؤسستنا تجاه شعب فلسطين الذي يصر على المقاومة وهو لا يملك إلا دمه، وتجاه الأمة العربية التي تجد في خوض هذه الملحمة طريقها إلى امتلاك مصيرها ومستقبلها. وإني إذ أشكر الأستاذ المتوكل طه على جهده الكبير فإني أشيد أيضاً بالأستاذين عدنان جابر وماجد الحكواتي الباحثين في الأمانة العامة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على جهدهما المتميز في إعداده للطبع على هذه الصورة.

والحمد للـــه.

عبدالعزيز سعود

البابطين

الكويت في ٢٠٠٢/٨/١٢

كلمة لا بُدّ منها

مرةً أخرى، أعود مفتوناً بهذا الشاعر المتلئ سخرية ومعرفة، بعد أن أتيت في دراسة أكاديمية على دراسة شعر إبراهيم طوقان – رحمه الله – سنة ١٩٩٢.

أعود لأضع بين يدي التاريخ والدارسين ما لم يعرف عن إبراهيم الشاعر الكاتب المعلم ، الناقد، والإنسان، في محاولة لإنصاف هذا العبقري من خلال إضاءة ما خفي من نتاجه، الذي لم ير النور لغير سبب.

أقدّم هذه الكنوز، كما هي، دون تدخّل منّي، وليس لي فضل سوى جمعها وتحقيقها وتبويبها، فالفضل الأول والآخر لله – عز وجل – ومن ثم لأُمّ روحنا الشاعرة التي لا تعرف إلاّ أن تحب وتعطي فدوى طوقان شقيقة الشاعر، التي فتحت لي بوابات مكتبتها ومكتبة شقيقها ومعلمها إبراهيم. والفضل كذلك، لأُستاذي الدكتور إبراهيم السعافين الذي أشرف على دراستي لإبراهيم وعلى هذه الملاحق/ الكنوز، وعبّر عن مدى ثرائها وأهميتها الشديدة.

إنني أقدم إغراءات بمنتهى الأناقة لكل باحث ودارس، من خلال هذا الكتاب، ليطلّ على ما لم يعرف عن إبراهيم من قصائد ورسائل ومداخلات ومقالات وأحاديث، وعلى ما تركه إبراهيم من أثر واضح في محيطه بدءاً من فدوى، وانتهاءً بالمتلقين من قرّاء ومستمعين، رغم أن ثمة نصوصاً شعرية ماجنة وقاسية نُقِلَتْ بالمشافهة، عن إبراهيم، لم استطع تثبيتها!! على غناها وأهميتها البالغة.

وربما لم يكن في خاطر شاعرنا إبراهيم أن هذه الكنوز سيطلع عليها أحد، سوى الذين وُجهت اليهم الرسائل، وهم لشدة قربهم منه لم يتأنق ولم يفتعل في كتابتها، بمعنى لم يؤصّلها ليدفعها إلى النشر في هذه الصحيفة أو تلك، ومن هنا تكتسب هذه المواد

أهمية خاصة جداً، لأنها نتاج خرج من دواخل إبراهيم دون أن يخضع لرقابة القارئ المفترض، ودون أن تمر تحت سيف الوعي الذي يحيط بالنص جيداً قبل أن يعممه في الصحافة أو يلقيه على المستمعين، وإلا لكانت، هذه الكنوز، قد نشرت أو أعدها المرحوم للنشر. إنها صفحات تشفّ عن شخصية شاعرنا دون حجاب أو طلاء، إنها المرآة الأكثر قدرة على توضيح إبراهيم كما هو دون قناع أو مكياج. ولعل هذا ينطبق أشد الانطباق على أشعاره الماجنة تلك، لأنها، بالتأكيد، لم تكتب لتُنشر(!!) وربما يرفع أحدهم عقيرته ويعلن احتجاجه عن حجب تلك القصائد الفاضحة، ويقول: لماذا لا تنشر، وقد امتلأ تراثنا وأمهات كتبنا بمثل تلك القصائد والحكايات الساخنة؟! بل أفرد عدد من الكُتّاب والمبدعين الموسوعيين العظام كتباً ومقامات تعالج أو تصف بفنتازيا أو بفكاهة ما عرف بالإيروتيكا. ولعلي أجيب عن هذا السؤال بأننا كأُمّة، نرهب ونخاف، في حالات الجزر والضعف، من أن نبسط كل نتاجنا، لأن الضعيف لا يجرؤ أن يقول كل ما يريد، في حين أنه وفي حالة القوة والمدّ، فإن هذه القوة تجد تعبيراً لها في اللغة والسلوك وطرائق التعبير عن المشاعر والحالات. وثمة رأي يقول إنه يجب حجب تلك النصوص بحجة تنقية التراث واللغة من الابتذال والإسفاف، لكن هذا الرأي غفل عن أن الانتقائية في التراث ستقودنا إلى التعصب واختلاف المرجعيات وتضارب الآراء، وأن التراث وحدة واحدة يجب تناولها كما هي، بشرط واحد ووحيد هو أن يكون قلب وعقل الباحث على هذه الأمة يريد خيرها ويبتغي قوتها ويبني سؤددها.

إن الانتقائية التي دعا اليها بعض المفكرين العرب أدت في النهاية إلى تغييب بعض عناصر القوة، أو إظهار بعض عناصر التردّي، أو في بعض الأحيان الأخرى، أدى ذلك إلى أن يُنظَر الى هذا التراث نظرة استهزائية تماماً.

الانتقاء الوحيد هو أن يكون عقلك وقلبك على هذه الأمة، هذا هو الشرط الذي نؤكده، ومن هنا فإنني اعتقد أن الظرف الموضوعي الحالي لا يسمح بنشر تلك القصائد التي اجترحها إبراهيم.

وهل أبالغ إذا قلت إن هذه الكنوز تشكل مفاتيح إضافية، لكنها حقيقية، لفهم الشاعر من جهة وتاريخه الشخصي والعام من جهة أخرى، لأن التاريخ هو شخصي أيضاً، والأشخاص، في بعض الاحيان، لا يشكلون إلا غبار طريق في مسيرة تاريخ أكثر قوة وسطوة منهم. وأعتقد، جازماً، أن إبراهيم طوقان، رغم موهبته وصوته المميز، كان شخصاً عادياً – ولم يكن غبار طريق – له ملذاته وشطحاته وعبقريته.. وعالمه الصغير الريان.

وأخيراً، أرى من المعقول بل المفيد ذكر ما قاله توفيق الحكيم في مقدمة كتابه «زهرة العمر»: و«الرسائل الحقيقية ليست عملاً مؤلفاً حتى يستباح فيها التنقيح والحذف والتهذيب، فإن ميزتها الوحيدة هي التشجع على نشرها بخيرها وشرها، وإني – توخياً للصدق – لم أحذف حتى ما كان يحسن حذفه من عبارات أو فقرات أو حوادث، قد يعتبر نشرها ماساً بشخص المرسل أو المرسل إليه».

إنني، بهذا الكتاب، أشكر الله تعالى الذي أعانني على إنجازه، كما أشكر كل من ساهم في إخراجه إلى النور، مع التحية.

المتوكل طه

رام الله ١٩٩٨

****

قصائـد وتعليقات

من آثار الشاعر إبراهيم طوقان وجدتها بخط يده في منزل شقيقته فدوى بين أوراقه وأشيائه وصوره

قصيدة بلا عنوان

أنتَ يـــا أســـتـــاذُ أدهـــشتَ الأنـــامـــا
أنت يـــا أســـتـــاذ طـــوّقتَ الحَـــمـــامـــا
إيهِ نـــهـــرَ الـــكـــلب يـــا بـــرْد الحـــشـــا
إيه نـــهـــر الـــكـــلب يـــا نـــهـــر الـــيـــتـــامى
وقـــفـــةٌ عـــنـــدكَ تـــشـــفي كـــبـــدي
وقـــفـــة عـــنـــدك تـــشـــفي المـــســـتـــهـــامـــا
لـــستُ أنـــســـاكَ خـــطـــيـــبـــاً قـــاصـــفـــاً
فـــتـــذكّـــر إن لـــلـــذكـــرى مـــقـــامـــا
يـــا لـــذكـــراكَ ومـــا أبـــردَهـــا
نـــزلتْ في الـــقـــلب بـــرداً وسلامـــا
حـــفـــلـــةٌ بـــالـــشـــكـــر زانـــوهـــا وقـــد
جـــعـــلـــوا من «جـــنـــة الـــعِـــلْمِ» خـــتـــامـــا
أنت قـــد عـــلَّـــمْـــتَـــني عـــشـــرين عـــامـــا
أنت قـــد فـــرّحتَ لي بـــابـــا ومـــامـــا
قـــعـــدوا لمّـــا الأغـــاني قـــعـــدتْ
ثمّ قـــامـــوا عـــنـــدمـــا الأســـتـــاذ قـــامـــا
ومـــشَـــوْا ثمّ أتَـــوْا وانـــصـــرفـــوا
عـــنـــدمـــا الـــســـاعـــة قـــد دقّت تـــمـــامـــا
ركـــبـــوا الـــتـــكـــســـيـــاتِ لمّـــا عـــلـــمـــوا
أنـــهم لن يـــجـــدوا ثَمّ تـــرامـــا

كـــيف لم يُـــعطِ بـــطـــاقـــاتٍ لـــنـــا
عَـــميَ الأســـتـــاذُ عـــنـــا أم تَـــعَـــامى
ســـــامحَ الـــلـــهُ ذوي الـــعـــلـم الأُلى
ملأوا الـــقـــاعـــةَ لـــغـــواً وكلامـــا
قـد تـسـلّـقـنـا عـلى شـبّـاكـهـا
فـرأيـنـا أكـثـرَ الـنـاسِ نـيـامـا
وشـربـنـا (لِـمُـنـادا) نـفْـحُـهـا
زَهَـرُ الـلـيـمـونِ أو نـفْحُ الخُـزامى
وهـربـنـا بـعـدمـا طـاردنـا
نـفـرُ الـبـولـيسِ خـلـفـاً وأمـامـا
واحـدٌ غـاب فـلـمـا سُـئـلـوا
عـنـه قـالـوا: إنّه مـات غـرامـا
والـــــذي مـــــات أتـتْ أقـــــواله
فـرَوَوهـا مـثـلـمـا جـاءت تـمـامـا
نـسـمـةَ الـنـيلِ سلامـاً عـاطـراً
من نُـهـيـر الـكـلـبِ نـثـراً ونـظـامـا

ملاحظة للمؤلف : في البيت العاشر كلمة (لـمّا) مكتوبة في ورقة إبراهيم طوقان الأصلية (لمّ).

****

مسودة مشروع قصيدة غزلية، لم نستطع استخلاص غير هذه الأبيات منها، وهي بدون عنوان:

إنّ الـــتي عـــانـــقـــتُـــهـــا
أخـــذتْ عن الـــروض الـــشـــمـــائلْ
ألِـــفتْ مـــنـــادمـــةَ الـــغـــديـ
ـــــرِ، وحـــاورتْ ظلّ الخـــمـــائِل
وتـــعـــلـــمتْ من طـــيـــرهـــا
لحنَ الـــعـــنـــادلِ والـــبلابل
تـــالـــلهِ لم تـــتـــرك غـــرا
ئبُ حُـــســـنـــهـــا قـــولاً لـــقـــائل

****

وثمة مشروع قصيدة، بعض الأبيات مكرر، وبعضه الآخر مشطوب، نستخلص منها الأبيات الواضحة التالية (القصيدة تبدو هزلية وهي بدون عنوان):

مـرحـبـاً بـالـرئـيس بـعـد الـغـيـابِ
مـرحـبـاً بـالـرئـيس شـيخِ الـشـبـابِ
مـنـشئِ الـتـفـتـزان ذي المجـد والـشـا
نِ مـلـيكِ الـزمـان والأحـقـاب
صـاحبِ الـتـاج ، ضـارب الخـصم بـالـكُرْ
بـاجِ، مـثلَ الـنـعـاجِ يـوم الـضـراب
ومـبـيـدِ الألـوف لا بـسـيـوفٍ
بل كـفـوفٍ تـرنّ فـوق الـرقـاب
قـد دعـاه الأعـداءُ راسمْ أفـنـدي
ذاك شـأنُ المـعـانـدِ الـكـذّاب
لُـعِـنـوا، إنه لَـبِـيكٌ وبـاشـا
الـكـريمُ الأحـسـاب والأنـسـاب
وَهْـو خـالي وتـاجُ رأسي وروحي
وحـبـيـبي ونـعـمـتي وعـذابي
أنـا مـحـسـوبه ومـحـسـوبُ مـحـسـو
بِ رئـيـسي هـذا لـيـوم الحـسـاب
ذاب شـوقـاً إلـيه لُـبّي وقـلـبي
ويـحَ لُـبّي وويحَ قـلـبي المـذاب
إنّ مـا بـي يـكـاد يُـزهق روحي
وقـلـيلٌ والـلـهِ نـحـوكَ مـا بي
كلُّ خـصمٍ بـغى عـلـيكَ فـكـسّـرْ
رأسَه بـالـكـلـوش والـقِـبـقـاب

****

نشيد الربيع

نظم إبراهيم عبدالفتاح طوقان.

قد بدا الربيعْ
وصفا الزمانْ
هيّا يا إخوانْ
نجمعُ الأزهارَ والأثمارَ في الوِدْيانْ

طابتِ النفوسْ
عَمّتِ الأفراحْ
زالتِ الأتراحْ
كلُّ طيرٍ فوق غصنٍ - يَنشُدُ الألْحانْ
كلُّ لحنٍ بعدَ لحنٍ - يبعثُ الأشجانْ
فلتُغنِّ أعذبَ الألحانْ

بهجةُ القلوبْ
بلبلٌ شادِ
هامَ بالوادي
ذو حنينٍ - كغريبٍ - حنَّ للأوطانْ
والأغاني - كالأماني - تُؤنس الولهانْ
يا له من بلبلٍ حيرانْ
وذلكَ الغديرُ
ماؤهُ صافي (صافٍ)
وِردُهُ شافي (شافٍ)

من أتاهْ – يا هناهْ – ردّه نَشْوانْ
طافَ يجري ، بينَ زَهْرٍ ناعِسِ الأجْفانْ
وَتَدَلَّت فوقَه الأغْصانْ

هَيا يا إخوانْ
إنه الربيعْ
بهجةُ الجميعْ
فاض نوراً وسروراً، فاتنَ الألوانْ
قُم لصفوٍ ، فُزْ بلهوٍ ، واطرحِ الأحزانْ
وَلْنُحيِّ سيّدَ الأزمانْ.

✷✷✷✷

توكيد الذكرى

هــذه نــفــحــةُ (الــبــحــيــرة) هــبّتْ
سَــحَــراً أم هــنــاك نــفــثــةُ ســاحــرْ
تــلك ذكــرى ســويــعــةٍ شــمــلَــتْــني
فــأرتــنــي شــمــائلَ الــشــيخ طــاهــر
قــد حــبــانــي بمــدحِهِ وَهْــو أهلٌ
أن يُــغــنّي بمــدحِهِ كلُّ شــاعــر
ليَ طَــوْقــانِ مــنكَ رحتُ أبــاهي
بــهــمــا الــدهــرَ ســيــدي وأُفــاخــر
حــول عــنــقي من جــوهــر الــشــكــرِ طوقٌ
ولــقــلــبي طــوقٌ من الــودّ آســر

القدس

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

١٩٤٠/٨/٢٠

****

«أكل الهوى»

ذهب الشاعر إبراهيم طوقان لزيارة صديقه أبي سلمى في المدرسة «البكرية»!!!
فدخل الصف في الوقت الذي كان أبو سلمى يملي على أحد التلاميذ البيت الآتي:

يـا خـافـقـاً لـو كـان يـشـعـر خِـلـتَهُ
قـلـبـاً يمـيـل به الـهـوى فـيـمـيـلُ

فكتب التلميذ الهوى بالألف الممدودة بدلاً من ألف مقصورة، فطلب الأستاذ من تلميذ آخر أن يصلح الغلط فأصلحه ، فقال إبراهيم طوقان:

من العجيب أن يعرف التلميذ في عمره هذا أكل الهوى.

****

عن طالبة مصرية كانت معه في الجامعة الاميركية في بيروت:

يـــا مَـنْ رآهـــا فـي الـــعـــروسَهْ(*)
مـــثلَ الـــصـــنـــوبـــرِ في الـــهـــريـــسَهْ
ســـــفـــــرتْ فـــكـــانت سُـــفْـــرةً
تحـــوي الأُكَـــيْلاتِ الـــنـــفـــيـــسه
مـن أجـــلـــهـــا رخـص المـــدا
مُ ، فـــأهـــرقَ الـــســـوَّاسُ سُـــوسه
فـــطـــعـــامُـــهـــا وشـــرابـــهـــا
فـــولٌ وبـــفـــتـــاك وكـــوسه
وكـــأنـــهـــا لمـــا بـــدتْ
شـــمـــعٌ تـلألأ في الـــكـــنـــيـــسه
نـــظّـــارتـــان ومُـــقـــلـــتـــا
نِ ، كـــدرجـــهـــار عـــلـــيه دوسه
ولـــهـــا فمٌ مُـــســـتـــقـــبَحٌ
مـــا يـــنـــبـــغي لك أنْ تـــبـــوسه
هـي ســـاعـــة رقّـــاصـــةٌ
دقّتْ مـــدى ســـنـــةٍ كـــبـــيـــسه
هـي فـي المـــواطن حِـــتّـــةٌ
تُـــنـــسي حـــمـــيـــدَ الـــدين طـــوسه
هـي فـــتـــنـــة يـــعـــنـــي إذا
طـــلـــعتْ نَـــسِيْ الـــراجلْ دروسَه
هـي غـــادة عـــربـــيّـــةٌ
إزّايْ صـــارتْ لـي جَـــســـوسه
قـــامت كـــده وأتتْ كـــدهْ
ومـــشتْ كـــده زيّ الـــعـــروسه
قـــد ألّـــفتْ بـــالـــفـــلـــفـــسا
تِ فـــمـــرحـــبـــاً بـــالـــفـــيـــلـــفـــوسه

(*) العروسة: مجلة مصرية.

عـــاشـــرتُـــهـــا ســـنـــتـــين مـــا
ألـــفـــيـــتُـــهـــا إلا عَـــبـــوسه
فَـــلَـــوَ انّـــهـــا نـــفـــخـتْ عـــلى
لـــبـــنـــانَ كـــادت أن تـــمـــيـــسه
وإذا أتُـــــمـــــبـــــيـلٌ مـــــشى
خـــفـــنـــا عـــلـــيه أن تـــدوسه
فـــحـــذارِ مـــنـــهـــا يـــا شُـــفِـــيـ
ـــرُ إذا مـــشتْ بـــطـــريق شـــوسه
يـــا ويـــحَـــهـــا ســـرّاقـــةً
ســـرقتْ من المـــفـــتي عـــطـــوسه
نـــسي الـــبـــبـــرجي عـــنـــدهـــا
ســـروالَ صـــنـــعـــته وكِـــيْـــسَه
يـــا لـــلـــخلاعـــة والـــشـــنـــا
عـــةِ والخـــديـــعـــة والـــدســـيـــسه
وتـــبصّ تـــلـــقى زوجَـــهـــا
قـــد خـــلَّـــصتْ مـــنه فـــلـــوسه
وتـــبصّ تـــلـــقى بَـــهْـــنَـــسيْ
قـــد قـــلَّـــعت مـــنه ضُـــروسه
وتـــبصّ تـــلـــقى الـــسي «بـــشـــا
يَ» ، غـــدا بمـــخـــلـــبـــهـــا فـــريـــسه
وتـــبصّ تـــلـــقى جـــســـمَـــهـــا
يـــعـــني كـــده حِـــتّـــةْ جَـــمـــوسه
وتـــخـــاف بـــطشَ الأنـــبـــيـــا
ءِ ، ســـوى كـــلـــيمِ الـــلـــهِ مـــوسى

****

قصيدة بلا عنوان

قُم لـلـجـهـاد ونـبّهْ راقـدَ الـهـممِ
وسـيّـرِ الجـيش تُـرهِبْ عـصـبـةَ الأممِ
أعـصـبـةٌ تـتـولّى الأمـرَ في زمنٍ
أصبحتَ فيه رئيسَ العُرْبِ والعجم
الـلـهُ أكـبـر هـذا لا يـطـاق ولا
يـرضـاه إلا مـلـيكٌ غـيـرُ مـحـتـرم
وأنتَ أعـلـى مـقـامـاً أنْ تـنـام عـلى
ضـيمٍ وحـولكَ هـذا الـشـعبُ لم يـنم
عـجـبتُ من عـصـبـةٍ قـامت ومـا طـلـبتْ
إذنـاً، ولـو شـئتَ لم تـوجـد ولَم تَـقُم
تَـدبَّـرِ الحـكمَ لا تـخشَ عـواقـبَهُ
بـدون رأي الـرئـيسِ الـفـرد والحـكم
الـتـفـتـزانـيّـةُ الـغـرّاء غـاضـبـةٌ
حـقـوقُـهـا بـين مـغـصـوبٍ ومـهـتَضم
قـامت فـذلّـلتِ الـتـيـجـانَ قـاطـبـةً
وصَـيّـرتْ دولَ الـدنـيـا من الخـدم
مـسـتـعـمـراتٌ لـهـا في الـكـون عـامـرةٌ
فـازت بـهـا عـنـوةً بـالـسـيف والـقـلم
نـبـتـونُ والمـشـتـري في كـفّـهـا كـرةٌ
وهـذه الأرض والمـرّيخ كـالـلُّـقَم

فـكـيف نُـغـضي ونـرضى عن إهـانـتـهـا
فَـلْـنـعـلنِ الـحـربَ شـعـواءً ونـنـتـقم
لا يـسـلم الـمُـلْكُ في أيـدي الـعـدوّ إذا
لم نـعْـمدِ المرهـفاتِ الـبـيضَ في الـقـمم
ولا يـــدوم لـــنـــا مُـــلْكٌ نـــعـــزّزه
مـا لم نُـخـضّبْ ديـارَ المـعُـتـدي بـدم
فـسـارِعـوا لجـهـادٍ أو يـحلَّ بـنـا
مـا حَلّ بـالـمُـلْك من عـادٍ ومن إرم

أمـيـرةُ الحجِّ مـا أحـلى ملابـسَـهـا
بَـراّقـةً تُـشْـغل الـعـيـنـين في الـظُّـلَم
ألـوانُـهـا فـتـحتْ غـصْـبـاً مـنـافـسَـنـا
وأنـــعـــشَتْ كلَّ ذي همٍّ وذي ســـقم
فـلـستَ تـنـظـر في أثـنـاء طـلـعـتـهـا
إلا عـيـونـاً تجـاريـهـا بلا سـأم
انـظـرْ تجـدْ كم مـحبٍّ في الـطـريق وكم
شـخصٍ على الـبـاب والـطـاقـات مُـزدحِم
تـمـرّ مـثـلَ غـزالِ الـرمل نـافـرةً
وجهٌ عـبـوس وثـغـر غـيـرُ مـبـتـسم
لـلـعـين مـنـهـا نـعـيمٌ غـيـرُ مـنـقـطعٍ
ولـلـفـؤاد جـحـيمٌ جِـدُّ مـضـطـرم
لا سـيّـمـا شَـعـرُهـا لمـا تـرفّـعه
بمـشـطـهـا أو بـأطـرافٍ من الـضـمم
وتَـلـفت الجـيـدَ دفـعـاً كي تـرفّـعَه
فـيـخـفق الـقـلبُ مـذعـوراً من الألم

مـــولايَ لا زلتَ في عـــزّ ومـــكـــرمـــةٍ
مـــاذا يـــقـــولـــون عن شـــعبٍ بلا عـــلمِ
والأمـــرُ أمـــركَ لـــكنْ جـــئتُ مـــقـــتـــرحـــاً
فـاسـمعْ وسـمـعُكَ قـولـي أكـبـرُ الـنـعم
اجـعلْ لـنـا عَـلَـمـاً يـحـكي ملابـسَـهـا
واجـــعـــلْه ذا طـرفٍ كـــالـــسنّ مُـنـثـلم

****

ثقلاء الثقلين
صقعاء الخافقين

باسم آلِ الخيّاطِ أبدأ شَكْوا
يَ وذكرى جمعيّةِ الشبّانِ
باسم عكّاءَ، باسم صورٍ وصيدا
وضهورِ الشويرِ من لبنان
وإذا ما وزنتَهم، خلّفتْهم
صَفَدٌ شائلين في الميزان
أَوَ ليس البرادعيُّ فتاها
ذاك من فضلها على البلدان
أَوَ ما أنجبتْ سميرَ بن شمّا
لتُباري به ذُرى كنعان
و«نصوحاً» ومن درى من نصوحٌ
لا تسلني واصحبْه بضعَ ثوان
وفتًى ينتمي إلى النحو كالنَّحْـ
ـوِ بغيضٌ لمعشر الصبيان
والذين ادّعَوْا أميّة والعَبْـ
ـباسَ فيها وسائر الإخوان
واحدٌ مُبْرَمٌ فكيف بجمعٍ
بل تَأمّلْ إذا التقى الجمعان

بـاسم «خُـرْشـيـدَ» والجـلـيـدِ المـقـفّى
مـنـذ قـحـطـانِه إلى عـدنـان
كلُّ بـيـتٍ من شـعـره بـيتُ مـاءٍ
لم يُـعـزَلْ مَـجـراه مـنـذ زمـان
وعـزيـزٌ عـلـيَّ ألا أرى الـبِـيْ
كَ «نـعـيـمـاً» في زمـرة الأقـران
وأبـا رزقٍ الخـراءَ المـصـفّى
فَـهْـو لا ريبَ ذو مـقـامٍ وشـان
وتـذكّـرْ بـأن آلَ كـمـالٍ
نـقـبـاءٌ في كل حـالٍ وآن
والحسيبُ النسيب فيهم جميعاً
«أكـرمٌ» وَهْـو سـيّـد الـعـرسـان
يـومَ قـالـوا زُفَّتْ إلـيه ثُـريّـا
قـلتُ أَرِّخْ تَـنـاكحَ الـفـرقـدان
لا تـطـيق الـنـفـوسُ من جـمعَ الـدّا
عَيْنِ داءَيْ غلاظـةٍ وامّـحـان
إن في القدس أغلظَ الناسِ طراً!!!

ملاحظة للمؤلف : القصيدة غير كاملة كما وردت من المصدر.

****

بلا عنوان

يـا ضـفـافَ الـقـويقِ في الـشـهـبـاءِ
حـدّثـيـنـا بـطـيّب الأنـبـاءِ
ذكّـريـنـا بـأحـمـدِ المـتـنـبّي
ذكّـريـنـا بـسـيّـد الـشـعـراء
ذكّـريـنـا بـآل حـمـدانَ بـالـفَـضْـلِ، بـأهل الـنـدى، بـأهل الـوفـاء
بـالمـلـوك الـكـرام بـالأنجم الـزُّهْـرِ عـلى الأرض بـالـشـمـوس الـوضـاء
كلُّ مـدحٍ لـولاهُـمُ لم أجـده
وُصِـلتْ مـيـمُه بـدالٍ وحـاء
يـا لـذكـرى الـعُـلى وذكـرى المـآتي
تـتـراءى عـلى ضـفـاف المـاء
طـأطئِ الـرأسَ بـاحـتـرامٍ وطـالعْ
صـفـحـاتِ الـتـاريخ عـنـد المـسـاء
وكـأن الـقـويقَ مـنـهـا بـخـيعٌ
يـا لـتـلك المـنـاظـرِ الحـمـراء
أيـهـا الـقـومُ خَـلِّـدوا خـيـرَ ذكـرى
لأبي الـطـيّب الـعـظـيم الإبـاء
خـلّـدوه بـالـشـعـر والـنـثـر والـنَّـحْـتِ ولـوح الـتـصـويـر بلِ بـالـغـنـاء
خـلّـدوه في مـصـرَ والـشـامِ وبَـيْـروتَ وأرضِ الحـجـازِ والـزوراء

وفـلـسـطـينَ والجـزائـرِ أيـضـاً
ثم في تـونسٍ وفي صـنـعـاء
وكـأني به قـد احـتـجّ غـيـظـاً
حـين سَـمَّـوْا به دروبَ الـبـغـاء
ألفُ عـامٍ مـرّتْ عـلى المـتـنـبي
كـان فـيـهـا الـشـعـرُ رمـزَ الـبـقـاء

ألـفُ عـامٍ ولا أرى ألـفَ عـامٍ
غـيـرَ يـومٍ في الـعـالم اللانـهـائي
ألفُ عـامٍ ولم يـزل شـعـرُكَ الـسـا
ئِـرُ فـيـنـا لـلـعـقل خـيـرَ غـذاء

****

ملاحظة: محاولة شعرية لإبراهيم طوقان وبدون عنوان:

مُـــرّ عـــلى مُـــســـلَّمٍ وسَـــلِّمِ
وقل لـه عـلامَ لـم تَـــــكـــــلَّمِ
وقل له أصـبـحتَ يـا مـعـلّـمي
تـلـمـيـذَ صـوّافِ الخـلـيلِ المـكـرم
يُـقـدَّر الإنـســانُ بـالـتـقـدّمِ
لا بـالـنـزول عن أعـالي الـسُّـلَّم
لا تَـعـبـسنْ في الـفـحص بل تَـبـسَّم
من كـان عـبّـاسـاً فـذاك أعـجـمي
وانـظـرْ إلى الأشـيـاء بـاردَ الـدمِ
مـثلَ أبي سـعـيـدٍ المُـعـظَّم
وانـظـرْ أبي[1] الـرضى المـفـخَّمِ
يـدفع خـيـرَ المـال لـلـمـقـدَّم
شـاردةٌ من الـكلام المـبـهَمِ
فـعشْ مـنـيـعـاً في علاكَ واسْـلم
مـشـقـلح، ممـقـرع، مـبـرطمِ
شـنـشـنـةٌ نـعـرفـهـا من أخـزم

****

(١) هكذا وردت في الأصل .

كلام، كلام، كلام!!

ما أكثره مكتوباً، وما أكثره مطبوعاً!!

الكلام هو عملة الأدب المتداول تهبط قيمتها بتضخمها، وقد هبطت قيمة المارك والروبل بعد الحرب لكثرة ما أخرجت مطابع ألمانيا وروسيا منهما.

وقبل أن تعمل المطبعة على تضخّم عملة الأدب كان للأدب شيء أشبه بالتداول على قاعدة الذهب.

لقد أضاع الكتاب فن الإيجاز القديم وأصبحوا يخشونه، وبسبب هذا التضخم في عملة المطبوعات لم يعد في إمكان كاتب – مهما عظم شأنه – أن يؤثر اليوم على قارئه تأثير من تقدموه بمئة وخمسين سنة.

النابغون الحقيقيون، إلى هؤلاء الذين يجب أن يتكلموا هم وحدهم يستقبلون العمل الشاق ويحيون، سيضطر هؤلاء إلى حذف الفضول، سوف لا نرى تلك الروايات اللامتناهية فيخبرنا الكاتب عن أثاث الغرفة وملابس أهل المنزل ومظاهرهم الخارجية وكيف قضوا أيام دراستهم وفتوتهم، وما هي حوادثهم الغرامية وكيف بذلوا فيها آخر قطرة من عواطفهم.

قل : من يتحمل منا تلك الدقائق التي يوردونها عن بعض «المردة» أمثال نابليون، وهل هي إلا تلال من الألفاظ تتراكم حول شخصية خيالية عادية؟ وماذا وراء هذه الكتب اللهم إلا أن نعثر فيها أحياناً على فكرة قد نأتي نحن بمثلها.

هيهات أن يكون في قولي ما يُرجع التداول الأدبي إلى مجراه، ولكن سيأتي ذلك عفواً بحكم الضرورة، إن الغابات التي يُصنع الورق من أخشابها لا تزال تُحتطب بسرعة ولا يمضي مئة سنة حتى يصبح الورق قيماً فلا يُستخدم إلا لحفظ الأفكار القيّمة.

بودي لو أعيش إلى المستقبل الذي تنبأتُ عنه لعلّي أضع مقالي هذا في جملةٍ واحدة.

****

صفحة نثر بدون عنوان

كان الشاعر العباسي محمد بن مناذر إذا سُئل: «أي الشعراء أحب إليك؟» يقول: «أحبهم إليّ الشاعر الذي أنا فيه!» ولا أزال منذ اطلعتُ على قول ابن مناذر أجد حقيقته راهنة وصدقه ماثلاً ، ولعلّ في بيان ذلك جواباً على سؤال مجلة الحديث الغراء: «أي شاعر استهوتك دراسة شعره وحياته أكثر من غيره ؟ ولماذا»؟ فأقول:

اتفق لي في أيام الدراسة – عصر الصبا الذهبي – أن عثرت على ديوان الشاعر العباسي ابن الأحنف صاحب «فوز» ، فوجدت ديوانه بالنسبة لما كنت أقاسيه يومئذٍ...! أشبه بسجل الجلسات القانونية قد نُظمت فيه وقائع الهوى شعراً رقيقاً ساحراً، تفيض به عاطفة لم يعرف الرياء إليها سبيلاً.

وخُيل إليّ أن الشاعر إنما توكّل بمكنون أمري وأقام على أمانة سرّي.... وكأنما أفضى إلى قلبي فما خفي عليه منه شيء، وأخذتْ قصائده ومقطّعاته تعكسُ صوراً هنّ طبق الأصل عما كنت فيه يومئذٍ من لواعج الوجد وما أكابده من تباريح الهوى، ذلك هو معنى جواب ابن مناذر وحقيقته، وهكذا استهوتني دراسة شعر ابن الأحنف وفتنتني سيرة حياته التي وقفها على الوفاء لحبيبته «فوز»، وكان وفاؤه هذا والبقاء طول حياته على حب واحد من أصعب ما يلاقيه الشاب في بغداد الفاتنة بجواريها وغلمانها ، الماجنة بشعرائها: كأبي نواس، والحسين الخليع ، ومطيع بن إياس ، وغيرهم، وكلهم معاصر لابن الأحنف، فتمكّنتُ من الحصول على طبعتين فوتوغرافيتين لنسختين مختلفتين من ديوانه محفوظتين في إستامبول، ولا أزال أرجو أن يكون لدي متسع من الوقت أتقدم فيه بالخدمة

لهذا الشاعر البارع في تصوير خوالج النفس الهائمة، القادر على تسجيل خفقات القلب الواله بأجلى المعاني وأكرم المباني، ولعمري ليس هيّناً على المرء أن ينظر في زوايا نفسه، فيصور ما اشتملت عليه، وليس سهلاً أن يصغي إلى قلبه فيترجم عما فيه، وحقيق بمن يقدر على ذلك أن يكون شاعراً عبقريّاً، يستحق التفرغ لدراسته والعمل على بعثه وإشهار ذكره.

وبعد ، عفا الله عن الأستاذ صاحب مجلة الحديث ما كان أنكأه بسؤاله للجروح!!.

وأستغفر الله لي وله وللعباس بن الأحنف.

✱✱✱✱

٦ مارس ، سنة ١٩٣٦

أخانا أحمد وأختنا فدوى:

أمس يا سيد ويا سيدة وصلت راجعاً من القاهرة بعد إقامة ١٤ يوماً، وها أنا اليوم في نابلس أُعيّد على أهل الدار وكلهم مبسوطون، وكلّهم كالعادة أول ما يتحدثوا للراجع من السفر يتحدثون عن اللي ماتوا، فأول الاخبار كانت أن (شَنْصَفا) ماتت وأظن أنها ماتت من بشاعة اسمها ، عليها رحمة الله، أقول لفدوى إنني في مصر تعرفت على سهير القلماوي وآبلا زوزو وكلتاهما من فضيلات السيدات الراقيات علماً وأدباً وأخلاقاً.

مصر في هذه الأيام جميلة جداً طقساً ومعرضاً وعيداً.

فلم «وداد»الذي بطلته أم كلثوم هو بشهادة كل من رآه أحسن من «الوردة البيضاء» لعبدالوهاب....

(إلى هنا انقطعت الرسالة).

****

أبيات لإبراهيم كتبها على ظهر صورة فوتوغرافية له، وبجانبه صديقه «إبراهيم مطر» وكانا زميلين في مدرسة المطران في القدس ومع الأبيات هذه المقدمة:

«نظم هذه الأبيات قلب مملوء بالإخلاص والمحبة الطاهرة»:

لعمرُكَ إنْ جار الزمانُ وفرّقا
وهذا زمانٌ غدرُه ليس يُتّقى
فيا رسمُ كن ضدَّ الزمان وغدرِهِ
بضمّك جسمَيْنا فإنَّ لكَ البقا
كلانا صديقٌ والفؤادان واحدٌ
ولو كان دَيْنٌ عن أخيه تَفرّقا
وأُدعى كما يُدعى، وأشقى شقاءه
ويشقى شقائي إنْ ألمّ بيَ الشَّقا
ستجمعنا هذي الوريقةُ إن قضتْ
علينا النوى في الأرض أن نتفرّقا

إبراهيم طوقان

١٩٢٣م

****

ملاحظة: وجدت هذه الوريقات مع بعضها البعض بخط إبراهيم:

«رأي في أدباء ذلك العصر»

أدباء ذلك العصر طائفتان، طائفة أقبلت على الكتب العلمية والفلسفية فكان لهذه الكتب أثر وأي أثر في أشعارهم، وهم إلى الجد والنظر في بواطن الأمور أمْيَل منهم إلى أي شيء آخر.

أما الطائفة الثانية فهي زمرة من هؤلاء الذي وصلت إليهم أخبار العهد العباسي الأول ومجالس شعرائه وعبثهم فتناقلوها وتحدثوا بها ، وأحيوا تلك المجالس فشربوا الخمر وانقطعوا إلى الغناء والندمان والغلمان والجواري، وتمموا ذلك بتدوين إحساساتهم في قصائد كما كان يفعل أبو نواس ورهطه، وأرسلوا الدعوات الشعرية إلى أصدقائهم وأغروهم بالإقبال بوصف غرف اللهو ومن فيها وما فيها.

علاقة الشاعر بزملائه :

كان الشاعر كما يظهر محسوداً، فقد هجا كثيراً من زملائه وشكا أمره منهم إلى رؤسائه.

أما الذين نالهم منه الأذى فاثنان كانا أخوين هما:

أبو بكر وأبو عثمان الخالديان.

نماذج من شعره في هجائهما وهجاء غيرهما، وشكواه على الشعراء

بينه وبين المتنبي :

حاول صاحب اليتيمة أن يقارن بين الشاعر وبين المتنبي، فعمد إلى أبيات للسريّ ذكرها تحت عنوان (سرقاته من الشعراء) وجعل يقول تحت كل بيت: «وهذا مأخوذ من فلان ، وهذا مأخوذ من فلان» وعندي أن هذه الطريقة في المقارنة غير مضمونة، لأن

الاتفاق في الموضوع الواحد لا يبعد أن يؤدي إلى استخراج معنىً واحد، فمعاني الجود التي يطرقها الشاعر وما إليها من التشابيه والاستعارات والكنايات، كل ذلك قد أصبح كالأرض المشاع يرسل فيها كل راعٍ أنعامه دون أن يدّعي أقل حق في ملكية تلك الأرض، ولكن هناك شيئاً واحداً يميز شاعراً عن شاعر هو جمال التركيب وأداء المعنى على أحسن وجه، وخير ما يعمد إليه في المقارنة هو رأي ابن الأثير حين قال.

.....

البحتري والرفاء:

قال ابن رشيق في كتاب العمدة :

«وجاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس» وهذه كلمة حق يدل عليها العدد الكبير من الشعراء الذين ظلّلهم المتنبي فأخفاهم ومنهم من كان جليل القدر كالسريّ الرفّاء وأبي فراس والخالديين والببغا والنامي والزاهي، إلا أن المتنبي كان من قوة الشاعرية وبروز الشخصية ما حقق قوله:

أنا الطائر المحكيّ والآخر الصدى ....

والآن أرجو من القارئ الأديب أن يسعني بحلمه وليتأمل ما سأقول:

انتقلْ بالمتنبي شاعريته وشخصيته إلى زمن البحتري ، أتراه يملأ الدنيا ويشغل الناس عن البحتري في جملة من شغل الناس عنهم من الشعراء؟.

****

ملاحظات إبراهيم – رحمه الله – على كتاب الروضتين في أخبار الدولتين:

ما برح المسلمون في كل أدوارهم، حاكمين ومحكومين، علتهم واحدة لم تغيّرها الأيام، ولم تهذب أخلاقهم غِيَر الدهر وعبر الزمان، وهذه العلة هي فقدان الهدف الأسمى، أو المبدأ العام الذي تحيا الأمم بالمحافظة عليه والذود عنه، الإسلام مبدأ وبحفظه حفظهم، ولكنهم كثيراً ما أهملوه في سبيل التافه من الأمور، وشدّما أغفلوه في التوصّل إلى هدف زائل، وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على ذلك، وما عليك إلا أن تقرأ الصفحات التالية لفتح القدس وترى الفتور في العزائم، والتفكك عند العظائم وعدم المبالاة بالخطر الداهم.

وإنك اليوم، والحكم للإفرنج في هذا العصر، لتستفيد من قراءة هذا الكتاب أشياء تدلك على أن القوم هم الآن كما كانوا في سالف الزمان: صليبيون بالأمس وصليبيون اليوم، يخفرون العهد ولا يرعون الذمام، يغدرون عند الأمان وينقضون الميثاق عند الصلح، والمعروف عندهم ضائع والمعونة منسيّة، والمماطلة خلق والطمع سجيّة، كما أن اليد القوية عندهم مرهوبة والشدة عليهم تقودهم إلى الخضوع والإذعان، ولا وطن ولا مروءة ولا حميّة، ناهيك بأمةٍ تفضل الإفرنجي الكافر على المسلم فتخطب وده وتطلب حكمه وتمنحه الامتيازات في بلادها – في ذلك العهد كاليوم – وتُمكّن جنوده من احتلال البلاد (ج١ ص ١٤٣) وناهيك بأمةٍ تقوم بفتنةٍ ضد الحكم الإسلامي في حالة ائتلاف قلوب المسلمين في العالم أجمع واحتشادهم لفتح القدس وخلاصها من الإفرنج، في هذه الفترة يقوم المصريون بفتنة!! فسبحان الله العظيم.

مات نور الدين وصلاح الدين فرجعت الفوضى إلى ما كانت عليه، وتفرقت القلوب، واندفعت المطامع في الصدور، ولا يزال المسلمون يقومون بواحد ويقعدون بموته، ولا يزال مجدهم القومي رهن تمخّض الزمان عن القوي العظيم، وميلاد الحدثان للمنقذ الأمين ، قرّب الله عهده ونصرَ جنده آمين.

إبراهيم

٢٤ آب ، ١٩٣٥م

****

«رسائل» من آثار الشاعر

إبراهيم عبدالفتاح طوقــان

كل هذه الرسائل وجدتها بين أوراق الشاعرة فدوى طوقان، شقيقة الشاعر وأكدت لي أن هذه الرسائل بخط يد الشاعر، وقد احتفظت بها كما هي.. للتاريخ!

هذه المجموعة تضم رسائل «الشاعر» إلى شقيقته الشاعرة فدوى طوقان مرتبة حسب التسلسل التاريخي - مكان إقامة الشاعر «بيروت» -.

بيروت

١٤ تشرين أول، سنة ١٩٣٠

أختي العزيزة والدرة المكنونة، القايمة من الجونة، القاعدة على أذنيها.

بعد تقبيل وجنتيك الخضراوين، أخذت تحريرك الذي كتبته بمداد الشوق، وقد نزلتُ إلى السوق وسألت عن هذا الحبر لأكتب لك به أيضاً ولكن لم أجده أبداً، فأرجوك إذا كان موجوداً منه عند الحجاوي أن ترسلي إليّ زجاجة وأنا أدفع ثمنها.

يوجد في مكتوبك أغلاط يجب أن تتجنبيها في المكتوب التالي.

١ – (مضى زمناً طويلاً) غلط.

(مضى زمنٌ طويلٌ) صح. لأن الذي (مضى) هو الزمن فهو فاعل، والزمن هذا وَصْفُهُ أنه طويل، والوصف يكون مثل ما قبله في الإعراب.

٢ – (ولكن القريحة لم تجود) غلط.

(ولكن القريحة لم تَجُدْ) صح بدون واو، مثل قولك (ذكرى تلك الأيام لم تُمْحَ)، فحذفت الألف المقصورة وهذا صح، لأن «لم» تجزم الفعل المضارع.

٣ – (أحتاج إلى كثير من التفكر لأن أحفظه) غلط.

(أحتاج إلى كثير من التفكير «حتى» أحفظه أو لكي أحفظَه أو كَيْ أحفظَه).

لا يوجد غير هذه الأغلاط وهذا جيّدٌ جداً ، وأنا مسرور كلّ السرور بإنشائِك وأعتقد أنّ في الصف الثاني العلمي شُبّاناً يغلطون أكثر منك في أقل من صحيفة.

بَسْ شُوفي مِشْ يكبرْ راسك؟ يجب أن تقرأي في الكتب الطيّبة دائماً، ويجب أن تواظبي على حفظ القرآن الكريم والشعر، وفوق هذا كلّه يجب أن تكتبي نثراً وشعراً حتى تتمرني على الكتابة، وإيّاك أن تهملي القواعد النحوية فهي مهمة.

إذا كان لم يُساعْدك أحدٌ في كتابة المكتوب فأنا أهنئك على إنشائك الجميل، اكتبي وأنا دائماً مستعَدٌ لأُصلح لك الأغلاط ولكي تدرسي هذا التصليح يجب أن تحفظي نسخة من التحرير الذي ترسلينه لتقابلي فيها الأغلاط، أنا الآن أعطيك موضوعاً لتكتبي عنه وترسليه في التحرير القادم وهو: (ما هي فكاهات نبيهة ونزيهة وحنان في يوم).

هذا هو الموضوع فراقبيهنّ جيداً، واحفظي فكاهاتهنّ ثم رتّبيها للإنشاء، وأرسليها في تحرير.

أهنئكم على الفونغراف، أنا منذ سافرت إلى هذا اليوم لم أسمع شيئاً، قولي: «الله يصبّرك ويدبّرك» ولكن أنا أرقى منكم اليوم، أنا أحضر السينما الناطقة كل يوم سبت، وقد حضرت (موريس شوفاليه) وسمعته يُغنّي أغنية إنكليزية أسطوانتها موجودة عندكم وهي جميلة جداً جداً . عندي مئة وتسعون تلميذاً كلهم صاروا يحبون الشعر كثيراً، مئة وثلاثون منهم يدرسون الشعر القديم كامرئ القيس وعنترة والخنساء، والستون الباقون بينهم خمس بنات يدرسون الشعر العبّاسي ، هؤلاء البنات هنّ: ماري ديب، سلوى خوري، وداد خوري، صبيحة مقدادي، ميليا مالك. وإنشاء الله بعد كم سنة نصير نذكر بينهنّ فدوة طوقان ، قولي «الله كريم».

سألتيني عن أجنَتْ لك الوردَ وأجْنَيْنَك الوردَ، الاثنتان صحيحتان والبيت:

أجنَتْ لك الوردُ أغصانٌ وكثبانُ
فيهنَّ نوعان: تفّاحٌ ورمّانُ

معناه: إن النساء الجميلات اللواتي قاماتهن كالأغصان والسمينات الليّنات كتلال الرمل جعلنك تجني الوردَ (أي تقطفه) من التفاح (وهو الخدود) ومن الرمان (وهو النهود). المرة القادمة اكتبي لي الأبيات التي لم تفهمي معناها، وإذا كان عندك قصيدة جديدة أرسليها، يلزم لك قاموس وإنشاء الله سأرسل لك واحداً، الآن مشغول ،انتظري حتىّ أتفضّى فأنزل إلى السوق واشتريه، وصيّتي لك: احفظي، اقرأي ، تمرّني على الكتابة نثراً وشعراً.

قولي للوالدة إنني مشتاق لها كثيراً، اشكري «نجله» على لساني لأنها تعلمك، قولي لرحمي إنني سأكتب لأحمد عن مسألته، لأنه لا يوجد في بيروت ولا مطبعة يشتغل فيها ناس أوادم، كيف أخبار نمر؟ خبريني عنه.

سلامات: تقبيل أيادي العمّة المحترمة الشيخة «كريمة»، السيدة المحترمة أم داود، الخالة العزيزة أم عبدالله ، أم علي، أم موسى، سعادة الوالدة المحترمة، تقبيل وجنات أديبة، نبيهة، حنان، نزيهة، سلامات إلى آسية، ونجلاء ، وبندر، وفتايا، يخرب بيتكم ما أكثركم ، لا أدري كم واحدة نسيت منكم، وبالختام وفقك الله ودمت لأخيك المشتاق.

إبراهيم

ملاحظة للمؤلف: لا أدري كيف أخطأ شاعرنا في كتابة (إن شاء الله) حيث جاءت في الرسالة بهذا الشكل (إنشاء الله)!؟.

****

٢٦ أكتوبر ، ١٩٣٠

بيروت - الجامعة الأميركية

أختي العزيزة المجتهدة النشيطة فدوى دام بقاؤها.

سلام وتحية، وقبلات وأشواق، نهار أمس أخذت تحريرك الجميل فسررت به جداً ولا سيما عندما أكدتِ لي فيه أنك تكتبين بدون مساعدة أحد، وسُررتُ جداً فوق ذلك بنشاطك واجتهادك ومواظبتك على الدروس والحفظ.

منذ ثلاثة أيام وأنا في شغل مستمّر متعب، كنت أصلح دفاتر الإنشاء للتلاميذ وعددها مئة وأربعون دفتراً فتأمّلي ما أكبر هذه الكمية، ثم تفكّري بصعوبة هذا العمل ومشقته عندما يكون أكثر التلاميذ ضعافاً، كانت أعلى علامة ثلاثة وثمانين من مئة، وأقل علامة سبعة وخمسين، أي أن اللذين أخذوا هذه العلامة الأخيرة سقطوا، وسأكتب لك بعض جمل منها لتُصلّحيها أنت وترسليها إليّ في التحرير القادم، (الجملة الآتية لفتاةٍ اسمها كُزين نشأت): (ولما ذهب نابليون إلى مصر أمر أن لجنة من الإفرنسيون تذهب وترى أرض السويس لأن يجب حفر قناط هناك).

وكتب أحد التلاميذ هذه الجملة: «إن الأخَوان رايْت الإنكليزيان اخترعا أوّل بالون الذي ظهر للعالم، فكان أول تجربة التي جربها الناس في الطيران».

صلّحي هاتين الجملتين وأرسليهما إليّ في التحرير القادم.

في تحريرك هذا غلطات بسيطة وهي أخفّ من غلطات التحرير السابق، فانتبهي لتصليحها الآن:

قلت: ولكن طالما يوجد من يساعدني فأنا بلا شك..... إلخ!

(طالما) لا تدخل على الفعل المضارع بل على الفعل الماضي، فالأضبط أن تقولي: ولكن طالما وجدتُ من يساعدني.. إلخ، وهذه أيضاً غلط من جهة المعنى في المضارع وفي الماضي لأن معناها: «وجدت كثيراً» وباللغة العامية «يالطيف قدّيش وجدت» كأنك تتعجبين

من كثرة الذين وجدتهم، مع أنك تريدين أن تقولي: «مادام يوجد من يساعدني» أو «ما دمتُ قد وجدتُ من يساعدني»، فهل عرفتِ الفرق الآن؟

قلتِ: «هذه هي الأبيات الغير مفهومة» ويجب أن تقولي : «هذه هي الأبيات غير المفهومة» أعني خذي (ألْ) من (غير) وضعيها على (مفهومة) فتصبح الجملة صحيحة، وهذه غلطة شائعة كثيراً حتى بين الذين يكتبون في الجرائد والمجلات وبين المعروفين من الكتاب والأدباء.

قلتِ: «سخسخ المعلم من الضحك» لا تستعملي (سخسخ) لأنها عامية وقولي: «وقهقه المعلمُ ضاحكاً وكاد يستلقي ..... إلخ».

قلتِ: «وقالت (أي نبيهة) أريد كرسي» كرسيّاً، لماذا؟ جاوبيني على سؤالي في التحرير القادم.

قلت: «فاشترت لها بندر ما طلبته وثمنه قرشاً»، وثمنُهُ قرشٌ، لماذا؟ تذكري المبتدأ والخبر، التفاح ناضجٌ، حنان جميلةٌ، عمتي دلوعةٌ، ثمنُه قرشٌ.

قلت: «ودقّت عليه مسماراً» و«دقّت فيه مسماراً» ومثل هذه أيضاً: «هذا كرسيّي وعليه مسماراً وفيه مسمارٌ ، ومثل: «ثمنُه قرشٌ» يجب أن تكون فيه «مسمارٌ» بالرفع.

«أين إبراهيم؟ فتؤشر على غرفتك» فتشيرُ إليّ .....

«بواسطة لبانها الصغير» كيف تشير بلبانها؟ اللّبَان هو الصدر أليس كذلك؟ ولكن الكلمة التي تعني إصبع هي (بنان) ثمّ لا تقولي (بواسطة) بل (ببنانها)، الباء وحدها تكفي.

(فكاهتها ليست لذيذةٌ) (لذيذةً) (ليس) مثل: كان ، ومازال ، وأضحى ، وأمسى، وأصبح ، وبات ، مثلاً: الجوّ معتكرٌ، كان الجو معتكراً، وأمسى معتكراً، وأصبح مُعتكراً....الخ.

وكذلك ليس الجوُ معتكراً، وكذلك قولك: «فليس مفهوم»، يجب أن تكون «مفهوماً»، انتبهي لهذه الأغلاط، وأرجو ألا تعودي لمثلها.

الأبيات الصعبة: «مستظهرات برأي.. إلخ»، صعوبة البيت في أسماء الأشخاص، وكل واحد منهم له قصة قديمة مآلها أنّه كان ينصحُ قومه بالآراء الطيبة فلا يسمعون منه فتُصيبهم المصائب، فابن الرومي يقول: إنّ النساء يتمسّكنَ برأي لا يشبه آراء (قصير عمرو) ولا (عمرو) ولا (وردان)، وبعبارة مختصرة إن آراء النساء غير صائبة.

(صَدّقنَ ما شئنَ.... إلخ) معناه: نقول لهنّ فيصدّقنَ ما نقول، ولكن مع هذه السلطة التي لنا (نحن الرجال) عليهنّ لا نزال تصطادنا (تقنّصنا) عيونهنّ ويصير حبهنّ فينا إدْماناً.

(أنكى وأزكى...) أي أشد نكايةً واشتعالاً من النار في قلوبنا، هؤلاء النساء المخلوقات من ماء للطفهنّ واللواتي ألوانهنّ كالنيران (الخدود والشفاه الحمراء).

(إذا ترقرقنَ)... عندما يتلطّفنَ معنا وتكون وجوههن مشتعلة بالشباب والنضارة لا يستطيع الإنسان إلا أن يبوح بسرّ حبه لهنّ، (ماءٌ ونارٌ) مثل البيت الثاني، أي أن الإنسان يتعذب ويبكي من لطفهنّ واشتعال شبابهنّ، حَرّان معناها (مُشوّب) كثير الحرارة، (نعيم كل نهار) معناه أن الواحدة منهن تشعل عود الطيب في مجامرها لكي تتعطّر فيصعد الدخان فيصير النهار مملوءاً بالغيوم (نعيم من الغيم)، وهي من جمالها تجعل الليل ضحيان أي كالضحى.

(كأنها وَعُثان النَّدّ...)، العُثان = الدخان، أي عندما تفعل ما تفعله بالبيت السابق فينعقد فوقها دخان عود الندّ تصبح شمساً فوقها ضبابات (غيوم) وأدجان (ظلمات).

لما قلتُ لك في تحريري السابق عن القصائد الجديدة كنتُ أعني قصائدك التي نظمتها أنت، وأما التمرين على الكتابة نثراً وشعراً، فأعني به أن تلاحظي ما حولك من الأمور التي تحدث أو الأشياء التي تقرأين عنها المجلات والجرائد والكتب فتكتبي عنها ما يخطر في بالك، مثال ذلك: الأشياء التي تلاحظينها: الآن نحن في فصل الخريف، لاحظي كيف كانت الدنيا قبل شهر ثم تغيّرت من السماء الصافية إلى السماء المتلبدة بالغيوم، وبعدما كانت الأشجار خضراء ناضرة، صارت أوراقها تصفرّ وتسقط، هذه

أشياء تحرك العاطفة فافتكري في وصفها بقصيدة أو إنشاء، أما الأشياء التي تقرأينها فكثيرة ومنها ما هو مؤثر فانتبهي إلى التي تتأثرين بها واكتبي عن هذا التأثير شعراً أو نثراً، هل فهمتِ قصدي؟

اكتبي شعراً أو نثراً عن الفتياني مثلاً.

هذا ما لزم وسلامي لكل واحد وواحدة من اللذين(*) سمّيتهم ومن اللواتي سمّيتهنّ في تحريري السابق.

وفي الختام يلعن صَفارك يا صفراء.

أخوك المشتاق

إبراهيم طوقان

(*) ملاحظة للمؤلف : لا أدري لماذا جاءت كلمة (الذين) في رسالة ابراهيم بهذا الشكل (اللذين)؟!.

****

الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت - سوريا

٢٥ نيسان ، ١٩٣١

أختي العزيزة والشاعرة الماهرة:

أهديك أشواقي الكثيرة وبعد فإنني أرسلتُ إليك في البريد الجزء الأول من ديوان أبي تمام وهو مشروح شرحاً وافياً ومشكّل تشكيلاً تاماً، وأريد منك أن تقرأي فيه وتنظري القصائد التي تعجبك (والتي تفهمينها أكثر من سواها) وتحفظينها.

ثم أرجو أن تكوني حفظت مختارات رواية «مجنون ليلى» جيّداً.

اكتبي لي عن أحوالك وأحوال البيت ، وخصوصاً عن نزيهة لأنني رأيتُ منها في فرصتي القصيرة عجائب وغرائب وصارت ينطبق عليها بيت شوقي:

تركتُكِ ليلى فانفجرتِ لياليا
مُؤلّفةَ الأشكالِ جدّ حِسانِ

وإذا رأيتِ أحمد مثلاً فقولي لنزيهة: «مين هَدا؟» فتقول: «أمّد» الكلمة الجديدة التي أعجبتني كثيراً منها، هذا ما لزم وقولي للوالدة ترسل إليّ جكيت البدلة الصيفية أحسن ما أدور بالقميص والبنطلون مثل الشفيريّة.

سلامي للجميع فرداً فرداً من نزيهة إلى عمتك كريمة.

إبراهيم طوقان

****

١٢ نوفمبر، ١٩٣٠م

بيروت - الجامعة الأميركية

أختي العزيزة فدوة:

ليست ساعةٌ عندي أجملَ من ساعةٍ أتناول فيها كتابك لأنني أجد فيه أخبار البيت والأطفال فأشعر كأنني بينكم، وكأن نبيهة ونزيهة وحنان قريبات مني ألاعبهنّ وأقضي معهنّ وقتاً جميلاً أُنشّط فيه عقلي بفكاهاتهنّ الحلوة، وقد تأخرتُ عليك وعلى غيرك في الجواب لأن عندي أشغالاً كان يجب أن أفرغ منها، فلمّا انتهت واسترحت أخذت أجاوب على الرسائل واحدة فواحدة.

عندك هذه المرة غلطات قليلة بالنسبة للأوّل وبسيطة أولها: «كم تأثرت عندما قرأت بأن التلاميذ ضعافاً» (غلط) ضعافٌ: صحيح.

الثانية: «ولكنها جرّة قلم لا أعد (غلط) لمثلها» (لا أعود) صحيح.

الثالثة: «أنّ أول بالون.... هو من اختراع (الشقيقان) غلط (الإنكليزيان) غلط (الشقيقين الإنكليزيين) صح.

سرني كثيراً إعجابُ الناس بقصيدتك، ولكن يا فدوة اسمعي مني هذه النصحية وهي:

إيّاك أن تظنّي نفسك أنّك أصبحت قادرة، افتكري دائماً بالاستفادة والازدياد من العلم، واعلمي أن تقدّمك لا يكون مستمرّاً إلا إذا قلت عن شغلك: (أستطيع أن أعمل أحسن) أما إذا افتكرتِ أن عملك صار كاملاً فإنّك تعرّضين نفسك للتقهقر بدلاً من التقّدم، فاحذري.

لا يوجد عندي إلا قصيدة رباب الكاظمي من أشعارك فأرسلي إليّ قصيدة (لقد زادَ في قلبي اشتياقي من البعد). لم أتمكن بعد من شراء القاموس الذي وعدتك به ولكن

يمكنك (إذا كنت في حاجة إلى قاموس) أن تسألي ابن عمّك خليل أو داود لأنني أتذكر أنّ (قاموس المنجد) عند أحدهما، فاستقرضيه إلى أن أبعث لك بواحد.

هل حفظت كل قصائد ابن الرومي التي علّمتُ لكِ عليها؟

خبّريني حتى أحضّر لك قصائد جديدة، وأتأمّل أن تكوني مداومة على قراءة القرآن والحفظ منه.

لماذا لا تجرّبين نظم قصيدة جديدة؟ جرّبي في أي موضوع تريدين.

قلتِ إن غلطاتك الماضية كانت ناشئة عن (غضب شديد لأسباب عائلية) يجب ألا تغضبي يا فدوة، طوّلي بالك.

هذا ما لزم ، وسلامي إلى جميع أهل الدار فرداً فرداً، ودمتِ لأخيك المشتاق.

إبراهيم طوقان

****

الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت - سوريا

١٩ أيار، عام ١٩٣١

أختي الشاعرة الماهرة فدوى دام بقاؤها:

أشواقي إليك كثيرة، وكنت على وشك أن أجيبك على تحريرك الأوّل وإذا بتحريرك الثاني قد أتى، فسررتُ به جدّاً وها أنا أجاوبك على التحريرين معاً.

سرني جدّاً أنك حفظتِ ما عليك من رواية «مجنون ليلى»، وسرني أكثر بشارتك بحافظ داود طوقان، جعله الله مولود خير وسعادة لوالديه، وللعائلة جميعاً.

إعرابك للبيت مضبوط، والفاء حرف عطف، لا بأس من إعرابها حرف عطف، على كل حال يجب أن تعلمي أن النحو والإعراب غير ضرورين بعد أن يتعلمها الإنسان، لأنهما واسطة لضبط الجمل، ومتى تعوّد الإنسان على الكتابة يصبح لا يفكر في الفاعل ولا المفعول، بل يكتب الجملة رأساً بلا توقف ولا غلط، ومثال ذلك أن تنظري إلى نفسك وكيف أنك لم تتعبي في كتابة مكتوبك اليوم كما كنت تتعبين به قبلاً.

أنا أشعر معك بالملل من حفظ الشعر والقواعد، ولذلك يجب أن تقرأي قليلاً من النثر مع الشعر، أظن أن قدري وابن عمك داود عندهما عددٌ من روايات المنفلوطي، استقرضي هذه الروايات واحدة واحدة واقرأيها فإنها لذيذة جدّاً ومفيدة، وفي الوقت ذاته احفظي ما يعجبك من الجمل الحلوة في هذه الروايات، ولا تنسي أن تداومي على حفظ شعر أبي تمام.

قصيدة الشيخ كلّها أغلاط من أولها إلى آخرها، قصيدة أبرد من ذقنه ، يخرب بيته ما أثقل دمه.

هل تتذكرين ماذا انتقدنا في القصيدة التي نظمتها في رثاء مولانا محمد علي؟ القافية قلنا: لا يجوز أن تكون قافية مساعد وماجد وحامد (مثلاً) مع مهنّد ومحمد وسعد

لأن الألف قبل الآخر معدودة مع القافية، ارجعي الآن إلى قصيدة الشيخ وانظري أنه وقع في الغلطة وإليك قوافيه:

مطلعه، طلائعه، ترفعه، منابعه، ترضعه، مراتعه، منافعه، طالعه، نجمعه، منزعه، صنائعه.

الكلمات المعلّمة بخطين قافية تختلف عن الكلمات غير المعلّمة، راجعي قصيدة:

لا تـعـذلـيـهِ فـإن الـعـذلَ يُـولـعهُ
قـد قـلتِ حـقّـاً ولـكنْ لـيس يـسـمـعُهُ

القصيدة كلّها مع «طولها» لا يوجد فيها ولا قافية من نوع (طلائعه) وما أشبه ذلك.

ثم ننتقل إلى أبيات القصيدة:

أهـدي أمـيـرَ الـعلا داودَ تـهـنـئـتي
بـخـيـر نجلٍ بـشـهـر الحجّ مـطـلـعُهُ

كلمة (نجل) هنا لا تصلح، ولو قال (بَدْرٍ) لكان وافق بين بدر وشهر ومطلعه لأن البدر يطلع كل شهر، تعلّمي يا شاطرة هذا السّر في جمال الشّعر، ولاحظي هذه الموافقة في القصائد المشهورة التي تحفظينها، وها أنا أعطيك مثالاً آخر عليه، من الشعر الذي تحفظينه، قال ابن الرومي:

أجـنَتْ لكَ الـوردَ أغـصـانٌ وكـثـبـانُ
فـيـهنَّ نـوعـان تـفـاحٌ ورمّـانُ

تأملي في البيت قليلاً تجديه كله موافق الكلمات:

أجنت: من جنى الثمر والزهر، أغصان: للثمر والزهر، كثبان: الأرض التي ينبت فيها الثمر والزهر، الورد: زهر، التفاح: ثمر، الرمّان: ثمر.

كل كلمة لها موافقة مع الثانية، كلها يتعلق بعضها ببعض، وتأمّلي وحدك في أبيات قصيدة البحتري التي يصف فيها الربيع وخذي منها أمثلة لنفسك كما أفهمتك.

بيت الشيخ الثاني:

من آل طوقانَ ساداتِ الزمانِ إلخ....)

هذا البيت لا معنى له أبداً.

والبيت الذي يُضحك هو هذا:

بـالجَـدّ والخـال والأعـمـام طـاب كـمـا
في روضـة الـعـلـمِ كم تحـلـو مـراتـعُهُ

جد «واحد» وخال «واحد» وأعمام «جمع» كثيرون.

انتبهي الآن إلى (التلزيق): المولود له عمّان فقط هما: خليل ، وقدري، إذن فالجمع فاسد، ولكن له خمسة أخوال: أحمد، إبراهيم، يوسف، رحمي، نمر، فجعل الاثنين جملة أعمام ، وجعل الخمسة خالاً واحداً، ولو قال بالجدّ والعمّ والأخوال يكون أقرب قليلاً إلى الحقيقة.

ثم ما هي علاقة «روضة العلم»؟ نرجع إلى الموضوع الأوّل: لا يوجد موافقة بين ذكر الأقارب والعلم، كان الأصح أن يذكر مع (الجد والخال والعم) (الأب والأم) ولكن الشيخ طفيليّ على الطبيخ كما أنه طفيليّ على الشعر.

الحاصل قصيدة مسقّعة، قولي لبندر تحرقها لئلا يبرد الصبي.

وأخيراً هذه الأعداد التي تسألينني عنها، هذا هو تاريخ السنة التي وُلِدَ فيها حافظ، وهي طريقة مخصوصة في جمع الكلمات خُلِقت للمشايخ والشعراء المفلسين، حروف الهجاء القديمة كانت هكذا:

(أ ب ج د) (هـ و ز) (ح ط ي) (ك ل م ن) (س ع ف ص) (ق ر ش ت) (ث خ ذ) (ض ظ غ).

وكنّا نحفظها بهذه الكلمات؟:

أَبْجَدْ، هَوّزْ، حطّي، كَلَمُن، سَعْفَصْ، قُرِشَتْ، ثَخَذٌ، ضَظَغٌ.

وكل حرف له عدد.

من (١) إلى (١٠):

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي

ثم عشرين ثلاثين ... إلخ

من (٢٠) إلى (١٠٠):

ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠

ثم مئتين ثلاثمئة ... إلخ

من (٢٠٠) إلى (١٠٠٠)

ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ماذا فعل الشيخ؟ قعد طول النهار، وسهر طول الليل، وهو يجمع ويحسب بهذه الحروف حتى دبّر الكلمات التي عليها الأعداد، مثلاً ناداك = (ن ا د ا ك) انظري القائمة: (النون = ٥٠. الألف = ١. الدال = ٤. الألف = ١. الكاف = ٢٠.) اجمعي الأعداد الآن = ٧٦، وهو العدد الذي تحت ناداك، وهكذا في كل كلمة، ثم جمع كلّ الأعداد فطلعت بعد الجمع ١٣٤٩ وهي السنة الهجرية التي وُلِدَ فيها حافظ، هل فهمت معنى الأعداد الآن؟ إذا لم تفهميها لا تتعبي نفسك بها لأنها سقاعات، وكلام بسرّك، حساب الشيخ (مش مظبوط) لأنه ترك بعض الحروف بلا حساب.

كنتُ أحب أن أرى نزيهة وحنان مُحصّبتين، وخصوصاً زوزهَة لأنها لا تستطيع أن تقعد بلا حركة، أخبار زوزهة التي في مكتوبك الأول كلها حلوة، قبّليها واسألّيها عني.

سلامات إلى كلّ من أفراد العائلة:

قَبّلي عني أيدي العمة، وأم داود والوالدة، والخالة، وسلّمي على يوسف ورحمي وقدري وفتايا وأم حافظ وآسية ونجلة وأديبة.

وقبلي عني حنان ونبيهة ونزيهة.

وقبلة من حافظ، وقولي لبندر: الحمد لله اللي قمت سالمة، بَسْ راحت علينا الكراوية.

أخوك

إبراهيم طوقان

✷✷✷✷

١٦ شباط، ١٩٣٢م

بيروت - الجامعة الأميركية

أختي العزيزة الشاعرة فدوى:

أُقبّل وجنتيك الصفراوين وبعد فإنني أعتذر إليك أولاً عن تأخري كل هذه المدة عن مكاتبتك، وليس هذا قصوراً مني ولكن أشغالي في هذه السنة أكثر من أشغال السنة الماضية، ويكفيني عذراً أنني لم أنظم في هذه السنة شيئاً يذكر اللهم إلا بعض أبيات أستحي أن أنشرها.

وأما أنت فعندك الكتب وعندك الوقت الواسع فتستطيعين أن تراجعي وتدرسي وتنظمي، وليس لكِ أي عذر إذا قصرتِ في ذلك، كان الوالد عندي واليوم سافر وأخبرني أن صحتك جيدة، وأخبرني أيضاً أن عدداً من كتب الروائع (٢٤) قد ضاع، وها أنا أبعث لك به مع العدد الجديد (٣٠) فاقرأيهما وافهميهما جيداً واحفظي ما تحبينه نثراً أو شعراً.

خبّرني الوالد أيضاً أنك نظمتِ أبياتاً للآنسة المرضة «فرجيني» أخت «فاني خميس» فلماذا لم ترسليها إليّ، يجب أن ترسليها مهما كانت حتّى أقرأها وأنبسط بتقدّمك.

يوجد بنت صغيرة اسمها رياض الخطيب عمرها عشر سنوات، وهي بنت أخت سعاد الخطيب التي نظمتُ لها السنة الماضية قصيدة (هواك جبّار على القلب جار..)، وهي بنت جميلة جداً ذكية خفيفة الروح لدرجة لا توصف، وأمها اسمها سارة أجمل منها وأذكى وأخف روحاً، وتعرّفت على هذه العائلة في جبل لبنان هذا الصيف ولما نزلوا إلى بيروت صرت أزورهم أنا ووجيه وامرأة وجيه (وهم سفوريون)، وقالت لي هذه البنت الصغيرة ذات ليلة أنت شاعر بالكذب، فضحكت وقلت لها متى أصير شاعر بالصدق، فقالت متى نظمت لي قصيدة، فقلت لها الحق معك يا عفريتة ثم نظمت لها أبياتاً فكادت تطير من الفرح، وهي:

يـــا حُـــســـنَـــهـــا من (ريـــاضٍ)
ملء الـــعـــيـــونِ نـــضـــارَهْ
شَـــهِـــدتُـــهـــا في ديـــارٍ
تُـــنـــسي الـــغـــريبَ ديـــارَه

أهـــدى الـــربـــيعُ إلـــيـــهـــا
عـــــــلـى المـــــــــدى آذارَهْ
نـــســـــيـــمُه وشـــــذاه
تـــــبـــــدو بـــــكلّ إشـــــاره
وزادَ مـــا شـــاء فـــيـــهـــا
مـن عِـــفّـــةٍ وطـــهـــاره
وقـــــــال لـم أُعـطِ هـــــــذا
إلا لأمّـــكِ «ســـــــــــــاره»

هذه هي رياض أعطاها الربيع كل شيء ثم قال لها ما أعطيت هذه الأشياء قبلك إلا لأمك، وهذه تذكرني بحكاية عمتك وسيلة (إنْ كان هذا خدّكا، اشْ حال خدّ أمكا، إن كان هذي عينكا ، إشْ حال عين أمكا).

وهذه القصيدة أريد منك أن تنظمي قصيدة على شكلها لرياض وترسليها إليّ لأنني قلت لهم عنك وقرأت لهم قصائدك فتعجبوا واندهشوا وقالوا ما شاء الله هذه ستكون شاعرة كبيرة، وسارة تفهم بالشعر جيّداً وتقدره، وهي خطيبة معروفة في اجتماعات بيروت النسائية، فلا تنسي يا فدوى ولا تهملي، انظمي القصيدة على خاطرك.

زوجة وجيه البارودي عمرها (١٧) سنة وهي على بساطتها خفيفة الروح تفقّع من الضحك ، وقد نظم لها وجيه أبياتاً هذه هي:

قـــالت وفي حـــديـــثـــهـــا
شـــيءٌ مـــن الـــــــــــرَّيْـــبِ
وجـــيـــهُ مـــا مـــقـــدارُ مـــا
عـــــنـــــدكَ مـن حُـــــبّـي
قـــــلـتُ هـــــوىً يملأ مـــــا
في الـــــكـــــون مـن رَحْـب
قـــــالـت دعـيٌّ وانـــــبـــــرتْ
تـــلـــسع بـــالـــعَـــتْب
دَعْ حـــبَّكَ الـــكـــثـــيـــرَ وامْـ
ـلأْ ســـعـــةَ الـــقـــلـب

فـــــــــــإن مــلأتَــه فـــــــــــذَ
لِكَ الـــــــهـــــــوى حـــــــسْـــــــبي

واسم امرأة وجيه (مسرّة)، وقد وضعتُ لكِ صورتها في هذا التحرير لعلها تعجبك فتنظمي لها قصيدة أيضاً ، وعندئذٍ يشكرك وجيه بقصيدة، يَلّه يا شاطرة.

أريد أن تجاوبيني على تحريري وتخبريني الأخبار عن البعلة نبيهة وقمر الدار نزيهة وعن حافظ، وقولي لبندر لا تزعل مني لأن غايتي مع الحلوة نزيهة دائماً.

طلع لأم كلثوم أسطوانة جديدة (ياما أمرّ الفراق) فهل اشتريتموها ، ولعبد الوهاب أيضاً «ردت الروح على المضنى معك» و«ليلة الوداع طال السهر» و«بلبل حيران»، وكلها مدهشة، قولي لأم حسين إنني مشتاق لها كثيراً وإنني زعلان من أحمد لأنه لم يأخذها لتسمع أم كلثوم، ولكن أحمد لا يعتب عليه لأنه لا يفهم في الغناء شيئاً.

طلعت الرواية الثالثة لشوقي واسمها (قمبيز) وسأرسلها إليك في المكتوب الثاني وهي رواية جميلة جداً، وستطلع له عن قريب رواية (عنترة) وهذه أيضاً سأرسلها لك.

هذا ما لزم، وبالختام أُقبّل أيدي الوالدة والعمة (أحسن ما تزعل) ويدي أم داود والخالة أم عبدالله ، وسلامي لآسية ونجلة وبندر وتشاشا رفيق نايفة بنت حسن آغا في الخياطة اللي ما أنا عارف كيف بتفهم عليها وهي بتحاكيها، وسلام لأديبة ويوسف ورحمي ومش عارف مين ومين؟

وقَبّلي عني نبيهة مرة واحدة ونزيهة عشر مرات وحافظ مثل نزيهة، وإذا بندر زعلت قولي لها هاتي حلوين مثل نزيهة حتى نحبهم مثل بعض ، اجتهدي وانظمي يا عروس.

أخوك المشتاق

إبراهيم طوقان

ملاحظة المؤلف: نلفت الانتباه إلى أن إبراهيم يكتب اسم شقيقته مرة (فدوة) وأخرى (فدوى).

****

٢٢ شباط، سنة ١٩٣٢

الجامعة الأميركية - بيروت

أختنا العزيزة الشاعرة فدوى حرسها الله:

سررت جداً بوصول تحريرك المملوء بالأخبار اللذيذة عنك وعن البيت ولا أدري من أي شيء أتعجب أكثر، من نثرك الجميل أم من شعرك المتين، واعلمي يا فدوى أن انقطاعك هذه المدة عن الدرس والنظم هي التي أفادتك كثيراً وجعلت الأشياء التي درستها تتخمّر في فكرك وهذه حقيقة مجرّبة، إن العجين مثلاً لا يمكن أن يختمر إلا عندما يُترك وإذا بقينا (نخُوسُ) فيه فإنه يظل عويصاً، وهذا مثلٌ لا أقصد منه الهزل، بل الحقيقة والجد وانت وحدك تشعرين بهذه الفائدة وكفى، قبل أن أتكلم لك عن القصيدة أريد أن أخبرك أنني لم أجد في التحرير غير قصيدة واحدة فقط وهي الغزلية أما قصيدة (خليني أشوف) (فرجيني) فإنني لم أجدها فلماذا لم ترسليها، أنا لا أزال أنتظر هذه القصيدة فأسرعي بإرسالها.

القصيدة = (أولاً): البحر هو بحر الرمل وكلها موزونة وزناً مضبوطاً لا كسر فيها.

(ثانياً): التراكيب قوية وجميلة والألفاظ متلائمة بعضها مع بعض تماماً.

(ثالثاً): النحو والإعراب مضبوط أيضاً ولكن يوجد غلطة واحدة في البيت الآتي:

غَنِّ لي إن شئتِ غَنّي إنّما
أنتِ غرِّيدٌ هَفَا نحو الغصونْ

شدا بين : أحسن.

القصيدة خطاب لفتاة، والمؤنث في (غَنّ) يجب أن يكون (غني بالياء) ولا يجوز لكِ أن تجعلي المذكر مؤنثاً فدبّريها بمعرفتك، وقريب من هذه الغلطة قولك: (فتعالي جارتي إني حزين) ويجب أن تكون (حَزينة) لأنك تتكلمين عن نفسك يا بنت، ومع ذلك فتصليح هذا الشطر هيّن فتقولين مثلاً:

(إنّما أنتِ شفاءٌ للأسى
وفؤادي ذو أسىً لو تعلمينْ)

وأحببتُ أن أغير لك لفظة (حزين) لأنها قد وردت في البيت الثالث (من أغانٍ تُمْثِلُ الصبّ الحزين). ويوجد عندك غلطة أُخرى وهي هذه : (إيه يا جارةً صوني القَسَما لا تكوني...) فان الوقف على القَسَما هكذا لا يجوز إلا في الموشحات ولذلك فيلزم التنوين وحذف (أل) منها، أحسن قُولي (قَسَمي) فيصير الشطر: (إيهِ يا جارةُ صوني قَسَمي) وأخيراً قولك: (وتناجين – ترى زاد اليقين) غير واضح كثيراً فلم أفهم معناه، هذه هي الانتقادات وبتصليحها تكون القصيدة لا غبار عليها.

انتبهي ، المعاني في الشعر دائماً يجب أن تكون واضحة ويجب ألا تتضايقي إذا كان البيت لا يأتي معك بسرعة ، وظلّي وراءه حتى يكتمل من كل ناحية – أعني تركيباً ولفظاً ومعنى – وجيه البارودي في بعض الأحيان يأخذ نهاراً كاملاً في شطرة واحدة ، وأنا أحياناً أرمي القصيدة الخالصة لأجل كلمة واحدة لا تعجبني، فتأمّلي لا أزال أنتظر القصائد الجديدة، وسأذهب إلى بيت الخطيب في أقرب وقت وأخبّر السيدة سارة وبنتها (رياض) أن فدوى وعدت بنظم قصيدة، كما أن وجيه سُرّ كثيراً بما كتبته عن مُسرِّة في النثر، فكيف لو رأى شعراً عن مُسرِّة.

بعد مدة قليلة تطلع رواية (عنترة) وعندئذٍ أرسل الروايتين لك معاً.

سلامات للجميع الصغار والكبار والعجائز.

(هذه الرسالة مطبوعة)

طابعها إبراهيم طوقان.

ملاحظة : (فرجيني خميس) كانت ممرضة في مستشفى نابلس كتب فيها إبراهيم طوقان قصيدة (ذهبت في رياح النسيان).

فدوى

****

الجامعة الأميركية

١٥ آذار، ١٩٣٢م

بيروت - سوريا

أختي فدوى

هذا كتاب مختصر مفيد تجدين طيّه جواب أم رياض السيدة سارة عن ابنتها رداً على قصيدتك، وهذا دليل على إعجابهم بالقصيدة. لم أعرف قبل اليوم أن سارة شاعرة وأنها تردّ على القصيدة بمثلها فانظري في أبياتها وتأمّلي في لطافتها وخفّتها ففي روحها كأنها نسخة عنها، وقد أرسلت لي القصيدة حتى أرسلها إليك وتردي عليها (طبعاً)، وبما أنها مدحتني فيها فإنني ابتدأت بقصيدة جديدة لها وخصوصاً لأنها أظهرت رغبة في أنها تريد قصيدة لنفسها، وقد قالت لي ذلك بطريقة لطيفة جداً ، قالت: (جاءتني بنتي رياض تقول إن الأستاذ إبراهيم سَمّعني قصيدة من أخته فدوى وأنا ما فهمت منها شيء إلا أنها كلها آخرها (سارة)، فضحكت منها وقلت لها يا بنتي لا تخافي القصيدة كلها عنك وقصيدة الأستاذ كلها عنك أيضاً ولكن أنا جئت بالمرقة وجرّتني القافية، فقلت لها أنت الأصل يا مولاتي والوردة من الوردة وإذا أردتُ أن أقول فيك شيئاً أخاف أن أُقصّر، ولذلك سأنظم لسارة قصيدة وأنتظر أن تنظمي أنت لها قصيدة تليق بها).

يوجد في أبيات سارة بعض أغلاط بسيطة ولكن (طبعاً) لا يليق أن ننتقدها لأنها مدح فينا، اسمعي، يجب أن نغيّر الوزن والقافية في جوانب والأفضل أن تكون القصيدة على بحر أكبر لتكون رسمية أكثر وتكون أيضاً عادية (غير موشحة) فاهمة؟؟

رواية عنترة لم تنزل إلى البيع بعد، سأرسل لك رواية قمبيز فقط.

من سوء حظي أنني لا أحضر في هذه الفرصة لأنني مشغول ولكن لا بأس فالصيفية قريبة وإن شاء الله نقضيها معاً . سلامي للجميع.

أخوك إبراهيم

قصيدة سارة:

أشـتـاق نـابـلـسـاً وأهـوى قـربَـهـا
كـيـمـا أرى فـدوايَ دون سـواهـا
لـي شـاغلٌ عن غـيـرهـا فـيـهـا فلا
أهـتمّ في جـنّـاتـهـا ورُبـاهـا
لا يـطّـبـيـنـي غـيـرُ رؤيـا وجـهـهـا
ولـوَ انّه بـاريسُ في مـلـهـاهـا
هـذا أنـا لـكنّ فـدوى غـيـرُ ذا
تـشـتـاق بـيـروتـاً لحُـسن بـنـاهـا
إن قـيـل لا هـذي فـريـدتُـهـا مـعي
تحـكي الـذي قـد قـلتُ فـلـنـقـراهـا
أو قـيـل لا هـا إن حـيـفـا أصـبـحت
مـثـوايَ وَهْـو مـجـاورٌ مـثـواهـا
فـلـتـأتِ ولـتـمـنْ عـلـيَّ بـزورةٍ
أُمـسي وأُصـبـح شـاكـراً نُـعـمـاهـا
وأقـول يـا ربَّ الـورى سَـلّمْ لـنـا
فـدوى فـريـدةَ عـصـرهـا بـذَكـاهـا
وبـفـضـلـهـا وبـلـطـفـهـا وبـظـرفـهـا
وبـحـسـنـهـا وكـمـالـهـا وبَـهـاهـا

١٨ مارس ، ١٩٣٢م

لا أشك في أنك رأيت الأغلاط في القصيدة، ولكن القصيدة على علاتها جميلة كما قلت لك في التحرير، البيت الثالث يبتدئ بلفظة ليس هنا موضعها أعني (يطبيني) لأن معناها (يدعوني) وأصل الفعل (طبى) قال المتنبي.

طـبتْ فـرسـانُـنـا والخـيلُ حـتى
خـشـيتُ وإنْ كـرمنَ من الحـرانِ

راجعي قصيدة: مغاني الشعب طيباً في المغاني ، والذي أرادت أن تقوله سارة هو (يستبيني)... البيت الذي قافيته (فلنقراها) مش مليح... والبيت الذي فيه (شاكرة نعماها) مكسور طبعاً، أما بقية الأبيات فهي جميلة مبنى ومعنى. لفظة (رؤيا) في البيت الثالث أيضاً غلط، يجب أن يقال (مرآي) الرؤيا للنوم وهي الحلم، جاء في سورة يوسف (مش أخوك) «وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً».

ملاحظة للمؤلف : التوقيع جاء قبل قصيدة سارة.

✱✱✱✱

الجامعة الأميركية في بيروت

٢٢ مارس ، ١٩٣٢م

بيروت - سوريا

أختي العزيزة فدوى:

أشواقي إليك كثيرة، كان من الواجب عليّ أن أكتب إليك قبل اليوم ولكن عرضت لي موانع كثيرة حالت دون الكتابة، قبل كل شيء القصيدة بعد تصليحها صارت جيدة جداً، ولكن مع الأسف وصلت بعد سفر سارة إلى فلسطين ببضعة أيام، ولكنني أعطيتها إلى والدها حتى يرسلها إليها فأرسلها وأتى الجواب، وها هو ضمن هذا التحرير، سأعرف لك عنوانها وأبعث إليك به لتكاتبيها إذا شئتِ، القصيدة جميلة يا فدوى ولعلّها أحسن قصائدها.

صورة فرجيني جميلة ولكن هي أجمل من الصورة، ويا ليت عندي وقتاً حتى أنظم لها بعض أبيات لأنها تستحق.

سألتني عن اللغة الإنكليزية وأنك ترغبين في تعلمّها، الجواب أنني افتكرت في ذلك قبل أن تكتبي لي عنه، انتظري مجيئي بعد شهر إن شاء الله وستبدأين معي، اللغة الأجنبية ضرورية جداً لك ونافعة، وكل شيء يكون بالتدريج فطوّلي بالك، إذا وصلك هذا التحرير وأنت لا تزالين في القدس عند أحمد فَسلّمي لي على أحمد ووجدان، ثم إنني أنتظر أن أرى لك قصيدة عن وجدان، وعن أحمد أيضاً، هذا موضوع جميل ويستحق القصيدة.

شو بدّي أقول تاني، مشْ عارف.

خَلَصْ سلامات للجميع.

أخوك المشتاق كثيراً

إبراهيم

****

بيروت - الجامعة الأميركية

٢٤ آذار، ١٩٣٢م

يا عروس الشاعرات:

اشتياقي إليك كثير ولكن حالت الضرورة دون المجيء إلى نابلس في هذه الفرصة فحرمت من مشاهدتكم جميعاً والتمتع بصفرتك التي تُزري بصفرة الليمون. وأكثر ما أشعر به من الشوق ناشئ عن سفر التلاميذ كل إلى أهله وأنا وحدي هنا، ولولا أن ابن العم بهاء الدين بن علاء الدين بن عبدالرحمن بن عبدالرزاق طوقان موجود هنا ولم يسافر لهربتُ من الشغل وجئتُ إلى نابلس سعياً على الأقدام، فهذا يسلّيني وأقضي أوقات فراغي معه.

انتقادك على قصيدة سارة كان في موضعه، ولا أظن أنه يوجد أظهر من هذه الانتقادات سوى بعض الضعف الشامل على القصيدة عموماً، وهذا يزول بكثرة المطالعة والنظم والتفرغ للعمل والتفكير به دائماً، ولا أظن أن السيدة سارة قادرة على ذلك. (مليح منها).

قصيدتك في مسرّة جميلة، وقد أعجبتني فيها أشياء كثيرة أذكر لك منها قولك:

قبسُ الآمالِ يهدي اليائسينْ
فكأنّ الليلَ والفجرَ المبينْ

فهذا تشبيه جميل جدّاً وتركيبه قوي لأنك جمعت في بيت واحد بين الليل وما يلائمه وهو اليأس وبين الفجر وما يلائمه وهو قبس الأمل (وهذا يسمونه التشبيه المركّب)، وفيه شيء آخر يسمونه (الطيّ والنشر) ولكي أدلك عليه وضعت الخطين بقلم الرصاص وسأقدم لك مثالاً آخر، قال أبو نواس:

يُميتُ ويُحيي بالوصال وبالهجرِ

لاحظي الموت مع الهجر، والحياة مع الوصال، فكأنه وكأنك أخذتما البقجة التي تذهب بها أمك إلى حمام الجديدة ووضعتما فيها قميص ولباس وطويتماها ثم فَتَحْتُماها وإذا فيها تنورة وبلوز، الأولى للقميص والثاني للباس، وتلاحظين أنني عكستُ فيجب أن

تكون التنورة مع اللباس والبلوز مع القميص، حتى يكون الطي والنشر من النوع التام، ولكن هذا ما جرى مع أبي نواس ومعك وهو النوع المعكوس، ومن الأبيات الجميلة قولك:

شـــادنٌ لـــو رمتُ إملاءَ الـــبـــصـــرْ

مـنـه لاسـتـعـطفَ كي تـغـضي الـنـظـرْ

وقولك:

إنّـه ريمٌ بـــلـــبـــنـــانَ أقـــامْ

يـا كـنـاسَ الـريمِ حـيّـاك الـغـمـامْ... إلخ

انتقادات ، وهي قليلة، أولاً: سارة لها خطيّة عند الله بدليل أنك وقعت في غلطتها عند قولك: «ونضت عنها ثياب الكسل» فوقفتِ على هذه الكلمة (الكسل) بحركة مع أنك قلتِ في غيرها، (خجلاً عاطراً ساعدٍ) ولم تجعلي هذه الكلمات على وزن «الكسل»، بعبارة أوضح يجب أن تتّبعي طريقة واحدة، إما عدم التقيد بقافية الشطر مثل الكلمات الثلاثة أو تتقيدي بقافية الشطر وهي اللام في (الكسل)، هذه هي العادة في الموشحات فانتبهي.

ثم إن هنالك البيت الذي ترين أنه ضعيف وهو (تعلمي شوقي العظيم وتبتلي) وهذا ليس ضعيفاً فقط وإنما هو مكسور، ويصحّ حين تقولين (تعلّمي شوقي وحبي تبتلي)، لديك غلطة في النثر وهي تنوين كلمة (قصائد) فإنها لا يجوز أن تنون، فيقال: قرأتُ قصائدَ بفتحة واحدة فقط، وكذلك كل اسم مجموع على وزنها أعني على وزن (فواعل ومفاعل) وكذلك (مفاعيل) أمثلة: (قصائد، جرائد، ضمائر، جآذر) (محاكم، مكاتب، مساجد، مراجع) (مصابيح، مفاتيح، مساكين، معاميد) الأحسن أن تراجعي في كتب النحو والصرف باب الممنوع من الصرف، تقول لك سارة في قصيدتها: (بيروتُ مثوايَ فيها والحيُّ حيُّ المناره) فهذا عنوانها فاكتبي إليها رأساً. (بيروت – المنارة)

حضرة الفاضلة الأديبة السيدة سارة الخطيب دام بقاؤها، وستكون مسرورة جداً بمكاتبتك كما أنك ستسرّين بمكاتبتها وتكون لك صديقة ترتاحين إلى محادثتها ومناجاتها بالتحارير عندما تسأمين من حكايات دار حسن آغا البايخة وخرطات بنات البيك.

كنت كتبت إليك أنني ابتدأت بنظم قصيدة لسارة شكراً لها على مديحي في أبياتك وقد كتبت بضعة أبيات (مش عاطلين) وقدمتها لها وجاوبتني عليها وهذه هي أبياتي:

يا كوثرَ الظرفِ النميرِ ومصدرَ الطْـ
ـطَيْفِ الغزيرِ وأهلَ كلّ ثناءِ
هل يستحقّ المدحَ منكِ شويعرٌ
مثلي وأنتِ أميرةُ الشعراء
القربُ منكِ إمارة وكفى بهِ
شرفاً أتيه به على الأمراء
ما زرتُكم إلا وفزتُ بغبطةٍ
ورجعتُ أحملُ أجملَ النعماء
فالسمعُ من سحر الحديث بمعزلٍ
عن كل ذات صوادحٍ غنّاء
والعينُ من بِشر الوجوه غنيّةٌ
عن كل بدرٍ مشرقٍ وذُكاء[1]
والقلبُ أطربُ ما يكون خفوقُهُ
لزيارةٍ في أهله ولقاء
فلكلّ جارحةٍ لديَّ نصيبُها
في داركم من هذه الآلاء[2]
وشمائلٌ لو كنتُ أبلغ غايةً
من عدّها لعُددتُ في البُلَغاء
جُمعَ التليدُ إلى الطريف بها فما
زان البنينَ تراه في الآباء
المجدُ منها والمروءة والندى
وغريبُ حسنٍ في عجيبِ ذَكاء

---

(١) ذكاء: الشمس.

(٢) الآلاء: النعم.

وكان جواب سارة هذه الأبيات:

يـــا واصـــفي بـــأمـــيـــرة الـــشـــعـــراءِ
عـــفـــواً فـــإني لـــستُ بـــالخـــنـــســـاءِ
وتـــقـــول عـــنك شـــويـــعـــرٌ هـــذا كـــمـــا
لـــو قـــيل عن سَـــحْـــبـــانَ بـــالـــفـــأفـــأء
إنّـي وحـــــــقِّكَ لا أشكّ بـــــأنـــــــني
في بـــحـــركَ الـــطـــامي كـــنـــقـــطـــة مـــاء
لا يـــخـــدعـــنّكَ بـــيتُ شـــعـــرٍ قـــلـــتُهُ
لا حُـــسْنَ فـــيه ســـوى جـــمـــالِ ثـــنـــائي

وسيكون لي ردّ على هذه الأبيات أيضاً أكتبه إليك في حينه، ليس من الضروري أن تتبعي وزننا وقافيتنا بل اجعلي قصيدتك مستقلة.

يصلك مع بريد هذا التحرير رواية شوقي (قمبيز) فاقرأيها على مهل وتفّهميها جيّداً واحفظي ما شئت من قطعها الجميلة، ظهرت رواية جديدة له أيضاً وهي رواية (علي بك الكبير)، وقد قرأتها مرّة واحدة فقط، وسأرسلها إليك بعد قراءتها مرة ثانية.

أختم تحريري بالسلام على الجميع كباراً وصغاراً.

أخوك المشتاق

برهوم

****

بيروت - الجامعة الأميركية

١٢ نيسان، ١٩٣٢م

إلى أختي فدوى، كاشفة البلوى، ومصدر السلوى: (كيف، مليح، ها).

أخذت كتابك اليوم وسررت به كالعادة لأنني أقرأ نثرك وشعرك ويسرني فيهما تقدمك، أتعجب كيف لم تصلك رواية «قمبيز»، وما دام الأمر كذلك فقولي للوالد أن يشتري لك بدلها عندما يذهب إلى القدس، يعجبني أنك فهمت جمال البيت الذي فيه: كوثر ومصدر والظرف واللطف والنمير والغزير، وأعجبني أكثر قصيدتك في سارة، إلا أن هنالك انتقادات بسيطة سأدلك عليها واحدة واحدة:

قلت: (وهناك ذات الظرفِ سارَ فليتني)، واختصار كلمة سارة مع أنها جائزة ليس جميلاً، قُولي: (وهناك ذات الظرفِ سارةُ - ليتني).

قلت: (خلق وخلق... إلخ) البيت ضعيف لأنه غير مفهوم، ولأنه لا يبيّن لماذا قلت أشباهًا (بالفتح) فيجب أن تكون مرفوعة، احذفي البيت.

قلت: (كالشمس حين تذرفي هذي الدنا) ، أنصحك ألا تستعملي الكلمات الآتية: (هذي، ذا، مذ، إذ) أيضاً، (الدنا)، والسبب هو أنها غير جميلة في الشعر ويوجد بدلها وكله جميل أعني: (هذه، هذا، منذ، إذا، الدنيا).

قلت: (ما شمت في أترابها إلاها)، لفظة شمت تستعملينها كثيراً، وهي غير جميلة كثيراً، وعندك بدلها عدة ألفاظ، مثلاً: لم ألق، ما كان، لم أرض.

قلت: (سيضيء دجوك)، يا أختي لماذا تتركين الكلمة الخفيفة اللطيفة وتستعملين الكلمة اللي مثل كفوف أم حسن أبو خرمة بعد الجلي، أعني لماذا تتركين كلمة سيضيء «ليلك» وتقولين «دجوك»، أعطي بالك يا فدوى هذه الكلمات هي أصعب شيء في الشعر، وتنقيتها تدل على ذوق الشاعر الفني، وسأفهمك بمثل بسيط، لنفرض أنك حملت نزيهة على ركبتك لتدليها، وحملت رحمي أو فتايا على الركبة الثانية (الله يساعدك) فماذا تكون

كلماتك لنزيهة وكيف تكون لرحمي، طبعاً تقولين لنزيهة: (أبّه كغة امش) وتقولين لفتايا: (دبه لبه قومي انقلعي)، لماذا لأن نزيهة نزاكة بحت ولكن فتايا خمالة وتقالة، والآن اسمعي، الموضوع الخشن تكون كلماته كبيرة ضخمة تملأ الفم، مثل مدح المتنبي وأبي تمام للأمراء ووصفهم للحرب، والموضوع النحيف يحتاج إلى كلمات نحيفة رقيقة مثل الغزل ووصف الربيع والأزهار ومثل مديح السيدة سارة، ولماذا نبعد اقرأي وصف الجنة والنار في القرآن وانظري إلى الفرق بين كلمات الوصفين.

الأبيات الجميلة في قصيدتك هي أول بيت والثاني بتبديل قافية مأواها اجعليها (مغناها)، الثالث جميل جداً، والسادس فهي الفريدة... والتاسع بعثت إلي.. والعاشر هي كالصلاب، والحادي عشر آيات شعر.

(أريد أن أتعشى وسأعود إلى تتميم الكلام) يا الله.

تعشيت ونمت وكسرت الصفرة وعلّمت أربع ساعات قبل أن أرجع وأتمم لك التحرير، ونعود الآن إلى الكلام، القصيدة بعد أن تصلّحيها تبعثين بها إليّ وأنا آخذها إلى سارة، هذا إذا كنت غير مطمئنة إليها، وإلا فابعثيها بنفسك إليها رأساً، أنا أفضّل أن تكون عشرة أبيات صافية جميلة وتحذفي الضعيفة الغامضة.

كنت أرسلت إليك أربعة أبيات بعثت بها سارة إلي جواباً على أبياتي وهي على قافية الهمزة، وقد جاوبتها عليها بأبيات هذه هي:

صدقتِ، ما أنتِ كالخنساء في شَبَهٍ
شتّانَ ما بين دنياها ودنياكِ
أينَ الشقاءُ من النعمى إذا انتسبا ؟
هيهات ذاكَ، أدامَ اللهُ نعماكِ
أم أين (صخرٌ) إذا قستِ (الرياضَ) بهِ
وانضمَّ ذائعُ ريّاها لريّاك ؟
أم أين وجهٌ أزال الحزنُ رونقَهُ
إلى ابتسامة بِشْرٍ في مُحيّاك ؟

وأفضلُ الشعر عندي ما يفيض بهِ
سرورُ قائله لا المدمعُ البباكي
وأنتِ كاسمكِ (سارةُ) لا بل أنتِ مصدره (السّ
سُرورُ وسِرُّه وأَجلُّ الناسِ سمَّاك
بنتَ الخطيبِ وهل بيتُ الخطيبِ سوى
أرومةٍ فرعُها عالي السنا زاكي
فداؤكِ المحْصَناتُ الغيدُ محصنةٌ
روائعُ الحسنِ أضحتْ من رعاياك
لبنانُ يحسد فيك الغوطتين على
طرائفٍ نالتاها من مزاياكِ
ما شئتِ شاعرةً ما شئتِ ناثرةً
ألفاظُكِ الغرُّ تَروي عن ثنايا ك
أديبةٌ لا يملّ الدهرُ مجلسَها
فإن تَقضَّى ينبْ عنكِ الصدى الحاكي
خطيبةٌ كُشِفَ الخَطْبُ الجليل بما
ألقيتِ من عظةٍ، والوحيُ لبَّاك
وحكمةٌ هي بنتُ الدهرِ ما نزلتْ
صدراً كصدركِ أو مغنىً كمَغْناك
وشعلةٌ من ذكاءٍ لو يؤانسها
موسى على طور سيناءٍ لناجاك (فاهمة البيت)
ولا أحدِّث عن روحٍ أخفَّ ولا
نفسٍ أعفَّ، وما تفنى سجاياك
لا زلتِ في ظلّ عزٍّ وارفٍ أبداً
ودمتِ مَغداك في النعمى ومَسراك

الغوطتين: بساتين الشام.

سارة لها مواقف خطابية في الاحتفالات في الشام وبيروت.

هذه هي الأبيات ولكنني لم أقدمها إليها للآن لأنني مشغول ولي نحو عشرة أيام لم أزرهم، هذا ما عندي الآن وأرجو لكم أفراحاً طيبة دائمة بخطبة أحمد.

سلامي للجميع، قبّلي الصغار عني.

أخوك المشتاق

إبراهيم طوقان

✱✱✱✱

هـذه المجمـوعة تـضـم :

(١) رسـالـة مـؤرخـة في الـعـام ١٩٣٢ مـوجـهـة من «الشاعر» إلى الأستاذ قدري طوقان.

(٢) رسـالـة مـؤرخـة في الـعـام ١٩٣٤ من الـشـاعـر إلى والده عبدالفتاح طوقان.

- مكان إقامة الشاعر: بيروت -

الجامعة الأميركية - بيروت

٦ أيار، سنة ١٩٣٢م

مقلق راحتي ومزعجي ودَاوِش رأسي ومغلّبي قدري:

لا أدري بأي الشتائم واللعنات أتقدم إلى الخوارزمي والبيروني والخيام وغيرهم، من هؤلاء الرياضيين الذين سلطك الله عليهم تزعجهم في قبورهم وتزعجني أنا أيضاً بسببهم، لا حول ولا قوة إلا بالله، يا أخي الدكتور سارطون سافر، وكتابه لا أعلم عنه إلاّ كما أعلم كيف تُخرجون الجذر التكعيبي للعدد، ولعلّ الرجل يظن أن كتابه طبّقت شهرته الخافقين وسارت مسيرة القمرين، فراح يقول لي إن الكتاب موجود في كل المكاتب.

والظاهر أنه هو وكتابه نكرة من نكرة، وسأسأل عنه في الجامعة لعلهم يعرفونه.

الذي أريد أن أناقشك فيه الآن هو محاولتك مسّ مادياتي مع علمك بأنّ هذه الناحية مني دقيقة الإحساس لدرجة متناهية، كيف تجرؤ على القول أن أشتري لك الكتاب، وهل يعقل أن أداين أحداً من الناس، هل تذكر في حياتك التي قضيتها معي أنك ظفرت بقرش مني، وعلى فرض أنك نلت بغيتك ألا تظن أنك عرّضت للقصف رقبتك، ما أغناك عن الوقوع في الدين معي، قد يخطر في بالك أنني أزعجك بالإلحاح لتسديد هذا الدين ولكن ليت القضية تقف عند هذا الحد، ذلك لأنني على يقين من تكليفك دفع أضعاف ما يكون عليك وتصبح ذمّة في عنقك يعلم الله وحده كيف تخلص منها، ولقد جرّبتني مستديناً، فهل تريد أن تجربني دائناً، سأشتري لك الكتاب إذا وجدته هنا، ولكن قد أعذر من أنذر.

ابتدأت بنظم النشيد الآتي لدائرة المعارف التي أوشك أن أصبح من أقراصها وخشبة من صحاحيرها.

عنوان النشيد هو:

البقّة والبرغوث (الموضوع مبتكر)

البقّة:

نحن بناتُ الخشبِ **نشرب دمَ العربِ**

(هذه وحدها كافية لأن تجعلني مفتشاً).

نمشي ببطءٍ عجبِ **نقرص مثلَ العقربِ**

البرغوث:

نحن الذين نقــفزُ **مكاننا مُعَـــــزّزُ**

بينا ترانا ننـــخرُ **حتّى ترانا نزهرُ**

(الكلمة يفسرها لك جلال).

كلاهما:

عشنا على الأبدانِ **في سالف الأزمــانِ**

لو كان في الإمكانِ **عشنا على الأوطانِ**

الجبنة الطازة

إبراهيم

****

بيروت - الجامعة الأميركية

١٩٣٤/١٠/١٩

سيدي الوالد حفظه الله:

أقبّل يديكم وأطلب رضاكم ودُعاكم، وبعد فقد وصلت إلى بيروت مساء اليوم الذي سافرت فيه من طرفكم، وكنت قابلت أخي أحمد في طولكرم وحدثته عن أحوالي فاستصوب رأي الاقامة في بيروت كثيراً، وفي القطار ركبت إلى حيفا وكان فيه راغب النشاشيبي وفخري وأبوسلمى لحضور جنازة رئيس بلدية عكا.

ومن ظريف ما جرى أن فخري النشاشيبي سألني: لماذا أرسل والدك تلغراف تهنئة للدكتور حسين الخالدي؟! فأجبته: إنني لا علمَ لي بتلغراف ولكن ذهبت مع الوالد للقدس خصوصي وهنأنا الدكتور حسين بفوزه والسبب يا فخري بك هو النسب والقرابة التي بيننا، والذوق اللي مش لازم يكون مفقود منا لهذه الدرجة؟!! فسكت وكان راغب بك يسمع فطنّش أيضاً، وكلام فخري وسؤاله هو من النوع الذي تسمونه (حكي شراطيطي صحيح!) في بيروت كما كنت أتوقع انقطع مني المغيص ومشت معي حركة الأمعاء منظومة مضبوطة، أما فقر الدم فإنني واجهت الدكتور خياط وحدثته بالحكاية من الأول إلى الآخر فأظهر عجبه من عملية الدكتور كميلن وشهدَ له بالقدرة الفائقة، وبعد الفحص سألني عن مدة إقامتي فأخبرته إنها تحت تصرفي من اليوم إلى غاية شهر ونصف، فأجاب إذا كان الأمر كذلك فأنا افضل أن تدخل المستشفى يومين أو ثلاثة نكرر في أثنائها الفحص للدم والبول والغائط فربما كان هناك شيء مغطى بقشة فننبشه ونعالج على نور، فوافقته، وسأدخل المستشفى صباح الإثنين وأخرج ظهر الاربعاء إن شاء الله وتكون النتائج حسنة، مسألة الشغل الذي بحثت معكم فيه يظهر أنه صار له مقدّمات في الجامعة وأن الطبخة تنطبخ، قابلت حبيب كوراني وهو الرجل الذي شقّ معي النغم في نابلس فكان أول حديث له بعد السلام والسلامات سؤاله: هل قابلت الأستاذ أنيس؟

فقلت له: كلاّ، قال : لازم تقابله من كل بد! ثم قال : وأنا لي معك حديث مهم! ثم رأيت الأستاذ أنيس فقال لي إنه يريد أن يراني في جلسة طويلة!

ثم إن عمر فرّوخ كلّفه أنيس من مُدّة ليشتغل في الجامعة فرفض لأن المقاصد الخيرية سترسله بعثة لألمانيا على حسابها.

إذا ربطنا هذه بعضها ببعض يمكن القول إن في الجوّ شيء (شيئاً) لعلّه خير.

استأجرتُ غرفة في الجامعة كاملة المعدات طيبة الموقع بأجرة يومية قدرها ٥٠ قرشاً سورياً في اليوم أو ما يعادل نحو جنيه فلسطيني في الأسبوع، وسعر الفلسطيني اليوم ٣٧٠غ سوري، أما الأكل فلا أريد أن أتقيد به الآن حتى نرى نتائج الفحص وما يقتضي عمله لئلا يكون مطعم الكلية غير مستعد لطبخات خصوصية مثلاً.

وبالختام السلامات للجميع وأقبل أيادي الوالدة المحترمة وسلامات لأبي حافظ وعائلته ولخليل وللعم أبو غالب ودمتم كما رمتم.

لولدكم

إبراهيم طوقان

إذا جاءني مكاتيب فحوّلوها باسمي إلى (الجامعة الاميركية) (وست هول).

ملاحظة للمؤلف: الكلمات التي تقع بين قوسين، فيما مضى، غير موجودة أصلاً في نصّ الرسائل، بل أثبتها لتصحيح الخطأ الوارد أصلاً في الرسائل.

✱✱✱✱

هذه المجموعة تضم :

(١) رسالتين مؤرختين في العام ١٩٣٤ موجهتين من الشاعر إلى:

أ – رئيس تحرير جريدة فلسطين.

ب – صديق يعمل في جريدة فلسطين (لم تُرسل).

– مكان إقامة الشاعر نابلس –

(٢) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٥ موجهة إلى الأمير شكيب ارسلان (لم تُرسل).

– مكان إقامة الشاعر نابلس –

(٣) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٦ موجهة إلى شقيقته الشاعرة فدوى أثناء إقامتها في «عمان».

– مكان إقامة الشاعر نابلس –

١٩٣٤/١٢/١٦

حضرة الفاضل رئيس تحرير جريدة فلسطين الغراء المحترم:

سلام وتحية: وبعد فقد اطلعت في عدد الأحد الأخير على قصيدة بعنوان (صدى الماضي) من نظم شقيقتي فدوى طوقان، وقد عجبتُ كل العجب لهذا التبديل والتحوير الذي طرأ على القصيدة مما جعلها ذات بحور مختلفة، فضلاً عن العبث بكلمات شعرية منتقاة يعرف قيمتها أهل هذه الصناعة الدقيقة.

وبمقدار ما أسفت لهذا التشويه، وبمقدار ما خامرني الشك في مقدرة (مصحح) القصيدة....، فقد سرّني من شقيقتي أنها أصبحت موسيقية الأذن في الشعر تميّز بين أشد الأوزان تقارُباً، الأمر الذي أشكل على المصحح فورّطه في خطأ فاضح، ولو سلمنا جدلاً بوجود أخطاء في القصيدة فقد كان من المنتظر أن تُنشَر على علاتها وكما خطّتها يد صاحبتها ما دامت هي المسؤولة عنها، وما دام الانتقاد واقعاً عليها لا على الجريدة.

لذلك أرجوكم أن تنشروا كتابي هذا بأسرع مناسبة وإعادة نشر القصيدة كما وصلت إليكم، وتفضلوا بقبول الاحترام.

المخلص

إبراهيم طوقان

****

١٩٣٤/١٢/٢

نابلس

(لم ترسل)

حضرة الأخ (. . . . . .) افف حفظه الله..

سلام واحترام

في عدد الأحد – الذي سبق الأخير – نُشرت قصيدة بعنوان «صدى الماضي» لشقيقتي فدوى، ولا أعلم مَن الذي عبث بالقصيدة فأودع فيها علمه العجيب في فَنّ العروض وجعلها كالأسطول الإنكليزي تمخر في كل البحور ..... الشعرية!!

بادرتُ يومئذٍ فكتبتُ إلى الأستاذ يوسف حنا، وأودعتُ كتابي كلمة أحببتُ نشرها مع القصيدة مصححة – كما كانت أُرسلَت – ورجوته أن ينشرهما، وإلى اليوم – وقد مرّ أسبوع كامل – لم تُنشر الكلمة ولا القصيدة.

لا أعلم أن لي أو لشقيقتي عدوّاً في إدارة جريدة (فلسطين) بالعكس لا أعرف فيها غير أصحاب إخوان، ولم أشأ أن يذهب الظن بي إلى الإثم فأقول إن ما حصل كان بسابق تعمّد وإصرار....؟ كما أنني لا أريد لشقيقتي – وهي بعد ناشئة في دنيا الأدب – أن يُسجّل عليها الجهل بالعروض إكراماً لخاطر جاهل فيه موجود عندكم يجب أن يُعلّم نفسه قبل أن يتكرّم على الناس بالتعليم ويأخذ أخطاءهم بالتصحيح..! وما حملني على الكتابة إليك خاصة إلا هذا الجور الذي لحق بي من (فلسطين)، اللّهم إلا إذا كانت «فلسطين» تعتبر اتصالنا بها وإيثارنا إياها على غيرها استجداءً تقبله بالتصدّق علينا، ومنّةً تتصرّف بها قبضاً وبسطاً، وعندئذٍ فلعنة الله على أدب ينحطّ بنفس صاحبه إلى هذا الدرك فلا يكرمها بتطليقه طلاقاً باتاً لارجعة فيه، وقاتل الله زعانف الأدب في هذا البلد الذي ابتذلوه بقذفه على الجرائد قذفاً فحقَّروه في عيونكم وأهانوه بتمسّحهم بالصحافة تَمسّح الكلب الجائع بمن يُلقي إليه العظمة.

أخي: إذا لم يكن من رأيك نشر الكلمة، نبعثها مع القصيدة، – وخير البر عاجله – تكون جريدة فلسطين قد قطعتني عنه بسكين قطعني به سواها من زميلاتها الجرائد الفلسطينية.. على أنني لا أعدم في سوريا ومصر والعراق إخواناً يحترمون الناس باحترام آثارهم «وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى».

وتفضل بقبول احترامي وتحياتي.

إبراهيم طوقان

✷✷✷✷

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

نابلس، ٤ أيار، ١٩٣٥

(لم يرسل - يحفظ للتاريخ)

سيدي عطوفة الأمير شكيب أرسلان حفظه الله آمين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد أُقيمت في طولكرم منذ أيام حفلة الأربعين لوفاة المرحوم الشيخ سعيد الكرمي وبعد انتهائها - وكنت شهدتها - علمت أن أحد محرري جريدة فلسطين يحمل (بروفا) لزنكوغراف جديد أُخِذ لوثيقة جديدة، زعموا أنها من (الخطورة) على جانب أعظم من سابقتها وذلك لأنها كما يقول المطلعون عليها تشتمل على حُجج لا يمكن دفعها، وبراهين قاطعة مانعة ترد على كل من يقول بتزويرها.... وأبلغ هذه الحُجج وأدمغها حاشية في أسفل الرسالة جاء فيها أنكم كنتم كلفتم إحسان بك ليبعث إليكم بقليل من (الحُلبة) وترجون من الحاج أمين أفندي (والرسالة منكم إليه) أن يُذّكر إحسان بك بطلبكم إن كان نسيه... وموضوع الحجّة أن المزوّر لا يعقل أن يخطر في باله مثل هذه الحاشية!

قال لي محدّثي وهو أحد رجال نابلس - من المعارضين - أن هذه (البروفا) مع الحاج نمر أفندي النابلسي، وأنا آتيك بها غداً لأطلعك عليها، وبدا لي من حديثه أن هذه الوثيقة عندهم هي رأس كليب، وأتى بها في الغد فتناولتها ولم أكدْ أقرأ السطر الأول منها، وفيه هذه العبارة (بعثتُ إليكم بكتاب ولم يصلني جواباً عليه....) حتى رددت «الوثيقة الخطيرة» لصاحبها وقلتُ له: «إذا أردتم أن تحفظوا لأنفسكم كرامتها وأن تبقوا على احترام الناس لكم فخيركم أن تحفظوا هذه الوثيقة الفاضحة للقائمين بتلفيقها، إن الأمير شكيب لا يقع في هذه الغلطة النحوية، وهذا الهذر في الإنشاء يضحك منه صبيان المدارس الناشئون فضلاً عن أن يجيء به أمير البيان!».

وبُهتَ مُحدّثي لهذه المفاجأة وقال: «ولكن هذه الوثيقة وسابقتها (كلام بسرك) أُخذتا عن رسالتين كانتا في جرار الحاج أمين».

قلت: «إنّ الذي ادّعى بأنه أتى بهما كاذب كبير ونصاب خطير على ما يظهر، طمع منكم بمال فأراد أن يحصل عليه بأية وسيلة، فساومكم على سمعتكم بتلفيق هذه الرسائل، وأتاكم بها على أنها صحيحة».

قال محدثي: «والحلبة ...؟» قلت: «قد يطلب الأمير شيئاً من الحلبة بواسطة إحسان بيك ، ولا أرى هذا الطلب من الخطورة بحيث يمنع إحسان بيك عن التحدث به وتكليف بعض الناس بتنفيذه، والمزوّر لا يحتاج إلى أن يكون داهية (حين علم بذلك) حتى يرى أن يدخل هذا الطلب حاشية على الرسالة المزورة إمعاناً في التضليل وتثبيتاً لصحة ما يأتيكم به من التزوير والتلفيق».

قال محدثي «والخط، ألا تعرف خط الأمير؟!» قلت: «إن الخط عندي ظاهر التزوير» قال: «لقد قابلناه برسائل من خط الأمير نفسه جاءنا بها الحاج شافع عبدالهادي فلم يكن عندنا ريب بأنها من خطّه» قلت: «هذا للخبراء إذا شئت أن تحتكم فيه، ولكن لو كان لديك رسالة من صديق لك حفيظ على ودك أكنت تبرزها في هذه الظروف والأحوال لتحكم بها عليه!؟ ولكن سامحَ الله الحاج شافع إن كان فعلها..!».

أما بقية ما اشتملت عليه (وثيقة الحُلبة) فهي ما يلي:

١ – تستحسنون من الحاج أمين أفندي إرسال رسائله إلى عطوفتكم عن يد القنصل الإيطالي ، وهذا يرسلها بدوره إلى مكتب الدعاية ومن المكتب ليدكم.

٢ – مركز الدعاية الإيطالية بلّغه أن جرائد الحاج أمين أفندي ضيقة الانتشار ولذلك فعطوفتكم تحثون الحاج أمين أفندي على اجتذاب الفاروقي إلى حركتكم بالتفخيم والتعظيم لأن الفاروقي يسرّه ذلك، وتقترحون إيجاد مئة اشتراك لجريدته.

سيدي الأمير: في هذه الوثيقة إذا نشرت قضاء مبرم على المزوّرين الأفاقين، وإذا كنتم وجدتم ثلاثين مأخذاً لإثبات التزوير في الأولى فإنّ كل كلمة في هذه الثانية حجة وبرهان على بطلانها وتلفيقها، إن الوثيقة المزورة التي نشرت كانت مفاجأة عند ظهورها، وقد تفاوت الناس في إدراك حقيقتها، وكان هناك كثيرون ممن كذبوها لأوّل وهلة لركاكة

أسلوبها وإسفاف لغتها، أما موضوعها فقد اجتمعت إلى شباب كثيرين وكنت في مجالس عديدة للرجال فلم أجد غير إجماع على نذالة هذه المؤامرة، وسخط على مدبّريها، ومجاهرة بتقديسكم وإجلالكم عن هذه السخافات... وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم، اطّلع على كتابي هذا سيدي الوالد وهو يهديكم جزيل السلام وأطيب التحيات ويدعو لكم بالتأييد وطول البقاء سيدي.

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

****

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

نابلس

١٩٣٦/١/٧م

الشقيقة الشاعرة حفظها الله آمين:

قصيدتك أعجبتني ولم أجد عليها أي غبار سوى قافية (الروابيا) التي وضعت مكانها (النواصيا) فصار البيت هكذا:

أقــامَ بــهــا من فــرع هــاشم ســيّــدٌ
يــحلّ من المجــد الــذرى والــنــواصــيــا

فقدّمي القصيدة على اسم الله، وتوكّلي على الله، ومتى قدّمتِها فأخبريني حتى أسرع وأرسلها في الوقت المناسب إلى إحدى القزازيط.

وائل يذهب إلى المدرسة واضعاً غداءه تحت إبطه، وعندما يعود يفتح فمه لننظر سنّ الذهب الذي طلع له من ذهابه للمدرسة، أديبة لا تذهب للمدرسة طبعاً لأنها لا تزال صغيرة جدّاً بدليل أنها تسدّ باب البيت فقط عند دخولها وخروجها، فتايا الخياطة تشتري لوازمها من عند الآتية أسماؤهم: أعطاف الخياط، ألطاف الخياط، سعاد الخياط، أم موفق الخياط (هذه خرية جديدة) والحاج بها عبدالهادي، نصيرة البدوية الصغيرة الجديدة لم يعجبها شيء من حياة التمدن على ما يظهر سوى الششمة، فهي إن ضاعت لا نجدها إلا هناك، ثم إنها مفروض عليها أن تقع بمعدل عشر وقعات في اليوم وتصيح بعد كل وقعة هَا وِيلي، هَا وِيلي.

ربما – وليس من المؤكد – أحضر إلى عمّان قريباً إن يَسّر الله.

هذا ما عندي وأترك الفسحات الباقية لتعليق أهل الدار واسلمي لأخيك.

إبراهيم طوقان

اسمعي ولي! قال ابدهوش يكتبوا لك بخاطرهم، يغس بالهم!!.

****

هذه المجموعة تضم رسائل «الشاعر» إلى :

(١) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٨ موجهة من الشاعر إلى حسن رحمي طوقان.

(٢) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٨م موجهة إلى شقيقته الشاعرة فدوى.

(٣) رسالة مؤرخة في العام ١٩٣٩م موجهة إلى شقيقته فدوى أيضاً.

- مكان إقامة الشاعر «القدس» -

حُرِّر في البيت بحضور جعفر وأمه وإبراهيم وأمه وأديبة:

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

الإذاعة اللاسلكية

القدس - في ٢ شباط، ١٩٣٨م

حضرة أخينا العزيز الحاج حسن رحمي طوقان المحترم:

بعد تقبيل لحيتكم المزمزمة والسؤال عن شريف خاطركم نبدي أننا يا أخونا الحاج مجتمعون حول النار في ليلة شديدة الأمطار والبرق والرعود والرياح، وقد استلمنا كتابكم المرسل إلى أديبة من المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأتم الصلاة، فسرّنا أنكم جميعاً بخير، واشتهينا أن يكون قد قُسِمَ لنا هذا النصيب في زيارة النبي الحبيب، فهنيئاً لكم هذه الفرصة السعيدة والزيارة المحمودة والحج المبرور والتجارة التي لن تبور (يعني مش مثل تجارة أخيك يوسف)، والمفروض الآن أن نكتب بالتفصيل ما كتبناه لسيدي الوالد بالاختصار عن ولادة جعفر حرسه الله ورعاه بعين عنايته آمين، فنقول:

في ليلة اشتدت زوابعها وهطلت أمطارها رجعت من سهرة ساهرة كانت في بيت جلال هاشم حضرها لفيف من الإخوان بينهم: يحيى السعودي، ومحمد عبدالكريم البزق، ومحمد عبدالمطلب، وكانت الساعة الواحدة بعد نصف الليل، وعندنا مع أم جعفر في البيت كلّ من الآنسة فتايا والسيد يوسف، والكل نائم ماعدا أم جعفر، فقالت إنها تتوجع من بطنها وظهرها، فطلبنا سيارة نقلتنا في الحال إلى مستشفى الحكومة - قسم التوليد - وجاءها المخاض إلى طبّون السيارة تارة وإلى رجل التخت تارة أخرى ومنها إلى الحائط أو الخزانة، حتى جاءت المرضة وقالت هذا أمر يطول حتى الصباح فخير لك أن تنام في بيتك وتعطينا نمرة تلفونك، ولم أكد استريح في الفراش (ولم أشلح لأكون على استعداد لأول نداء) حتى ضرب التلفون وإذا بالمرضة تقول إن الست تريد أختها، فطلبت سيارة وطلعت إلى دار روحي بك الساعة الثالثة بعد نصف الليل فنقرت الباب على غرفة الست عفّت ففتحته، وما سمعت بالمسألة حتى تعقّدت يداها ولم تعد تعرف الذي تريد أن تلبسه

من الذي تشلحه، قُول يا سيد بلا طول سيرة نزلنا من الدار ودخلنا غرفة سامية فوجدناها في حالة المخاض الأليم، ورافقناها إلى الساعة السادسة صباحاً، نمت خلالها على كرسي هناك ساعة من الزمان لشدة ما استولى عليّ من النعاس، وتركتها وعدت إلى البيت، ولم أفق حتى الساعة العاشرة إلا الربع، وأخذت التلفون وسألت الممرضة فقالت: «بعد عشر دقائق إن شاء الله. ولم تمض المدة حتى جاء التلفون من عفت فبادرتها بالسؤال عن سامية فقالت: قامت «سالمة» ثم سألت «جعفر» أو «جعفرة» فقالت بلهجة باردة «نعسانة»: صبي، ولم أصدق وظننت أنها تريد أن تطرد الفشل، قُول يا سيد بلا طول سيرة نزلت للمستشفى لفين؟؟ للمستشفى أيوه! وإذا «عفّت» في حالة يُرثى لها من التعب والسهر والبكاء، وإذا في السرير الصغير إلى جانب تخت الوالدة قطعة من اللحم لها رأس طويل مثل القادوس، وأنف مثل أنف «مهاوش»، والحاصل هيئة مخيفة، ثم أُحضرت الأم من غرفة الولادة ووُضعت في التخت بجانب ولدها، وهنا انتهى الفصل الاول وأدرك شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح.

اليوم الثاني والثالث والرابع لاشيء يُذكر سوى أن الرأس القادوس تغيّر وأخذ طبيعته، والوجه راق وظهرت معانيه، فمن قائل إنه يشبه أباه، ومن قائل: لع يشبه أمه، وآخر لع يشبه خاله، لع خالته، لع سِيده، لع ستّه، لع عمه، لع عمته، لع ابن عمه، والحاصل كلّما نظرت في وجه هالصبي رأيته يشبه واحداً ثمّ يشبه الآخر، والذي رأيت أنا فيه أن رأسي مركب عليه وجه سامية يساوي جعفر، آ، اسمع فُتّك بحكي، ولادة جعفر كانت كما يلي: الجورة سنطور، مصران الصرّة وتر عود، صوت بكائه ناي «توفيق جوهرية»، القابلة القانونية «ماري عكاوي»، التمرجي «تيسير فيض الله جابر»، المكاغي «محمد عطيّة»، وأدرك شهرزاد الصبّاح وسكتت عن الكلام المباح.

وفي اليوم الخامس أيها الحاج السعيد قلنا للدكتور حجّار أن يُطَهّره على سنة الله ورسوله، فلم تمض ساعة من الزمان حتّى صرخ صوت سيكاه وآخر نهاوند، وقُضيَ الأمر ومضى ثلاثة أو أربعة أيام وإذا بها على أحسن ما يرام، واستراح من هذه الغلبة وأراحنا معه، وهذا كان عين الصواب وأنف الحكمة، ولا نشك في أنّ سيدي الوالد يسرّه هذا الخبر جدّاً.

وفي اليوم التاسع خرجت أم جعفر وولدها معها، وهي والحمد لله تعالى على أحسن حال وأنعم بال، وكنا قد خابرنا أبا حافظ في نابلس فأرسل لنا الوالدة وهي لا تزال مقيمة عندنا، وعند وصولنا باب البيت وجدنا سيّارة قد أقبلت من نابلس وفيها أم حافظ وحافظ ووائل ونبيهة ونزيهة، وحنان وفدوى وأديبة وفتايا أتى بهم يوسف، ووصلت السيارتان معاً وطلع جعفر إلى دار أمه وأبيه محاطاً بقبيلة أو عشيرة من أهله الأقربين، وها هو اليوم بحمد الله يرضع وينام وينام ويرضع، حليبه في بركة وعافية ونومه هنيء وطعامه هنيء، يبكي على الوقت ويرضع على الوقت وينام على الوقت ويفيق على الوقت، فهو على حَدّ قول عمته أديبة ابن إذاعة و٢٤ قيراط.

أخبار متفرقة:

١ – جاءت الأخبار إلى نابلس بولادة جعفر فنهض فاروق على رجليه ومشى لليوم الأول بعد زحفه الطويل.

٢ – بكت أم داود فرحاً بقدوم ولدنا جعفر فمسحت «نجلة» دموعها.

٣ – جاء تلغراف وصولكم إلى المدينة يوم ولادة جعفر.

٤ – جاء تلغراف رجوعكم إلى مكة يوم خروج جعفر وولادته من المستشفى.

المطلوب منكم يا حجاج:

أولاً: عند الطواف وعند الصلاة وعند بئر زمزم وعلى جبل عرفات وفي كل الأماكن التي تتمّمون بها حجكم، المطلوب منكم جميعاً جدّه وعمه وعمة أبيه وابنة عمة أبيه أن يدعو له الدعوات الصالحة ولنا بالمعيّة.

ثانياً: هدية طاسة حمام وعطر ورد وتمر لأمه منشان الحليب وكحل للعينين مع مكحلة لطيفة وميل، ولأبيه طاقية ومسبحة عقيق.

ثالثاً: السلامات لجميع الموجودين معكم من النابلسية مع تقبيل أيادي العمة كريمة وسيدي الوالد.

كاتبه إبراهيم طوقان، الحضور: فوزية، سامية، أديبة، يوسف نايم ويشخر، جعفر شرحه نايم.

ملاحظة: إحياء لذكرى جدّي أبو الوالدة وخال الوالد قررنا أن نضيف اسمه إلى اسم جعفر فصار جعفر أمين طوقان.

إبراهيم طوقان

****

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

١٩٣٨/٤/١م

الإذاعة اللاسلكية - القدس

فدوى:

بدّك كتابين لنوال؟ حَبّتين، حَبّتين، حَبّتين.

وصلت ورقة نصف جنيه ثمن الكتابين: «حياة محمد»، و«منزل الوحي»، وثمنهما معاً في الحقيقة ٥٧ قرشاً، وأجرة البريد ٦ قروش، ضربت تلفون لمكتبة بولص سعيد وأعطيتهم عنوانك (فدوى عبدالفتاح طوقان) ليرسلوها إليك بالبريد رأساً وقريباً جداً يصلان، وما عليك إلا أن توصي الحاج رحمي ليرقب بريد الصَبّانة ويأتي بالكتابين إليك.

فرقية المبلغ ١٣ قرشاً إذا أمكنك أن تحصّليها فخذيها لك حلال زلال (١٠ قروش أنبوبتين كولينوس) و٣ قروش بكيتين دخان حنفليش للحاج رحمي. مليح.

جعفر مبسوط والحمد لله، المرأة العمصاء التي من دار الصمادي جاءت قبل سفرنا وما أمكنها إلاّ أن تضع بوزها على خد جعفر وتفرك عمصتها بأنفه فأصابه زكام، وأما أم جعفر فَرَوت لي الواقعة في الطريق وأخذت (تنسف) لها طول الطريق ولا يزال النسف يتجدد كلما عطس جعفر عطسة أو خنفَر خنفرة.

تقول أم جعفر إن العمصاء بوّزت وزعلت عندما حاولت أن تأخذ جعفر منها وتمنعها من تقبيله وهذا شيء غريب! فهو ابننا ولا نريد أن يقبّله بوزٌ مثل بوزها أو أن تفرك أنفها المسموط بأنفه، أو أن تدني عينيها العمصاوين من عينيه الجميلتين.

وجعفر صار له عقل، فهو يصيح عندما يرى البزّ، ويحدّق النظر في ألوان المخدّات، ويتحدّث لنفسه بمثل بُغام الحمام عندما يكون في العربة مستيقظاً.

أنا وأم جعفر وجعفر مشتاقون لكم جميعاً.

****

إبراهيم طوقان

القدس

١٥ نيسان، ١٩٣٩

أختي فدوى، دفع الله عنها الكرب والبلوى:

أصبحت اليوم فخاطبت محل بولس سعيد بالتلفون، وطلبت منه أن يبعث إليك بديوان الشاعر إسماعيل باشا صبري (وهو غير صبري حسن آغا).

الديوان صغير، ولكنّه أفضل من ثلاثمئة ديوان صدرت حَتى اليوم، ومن مميزاته أنه صافي الديباجة، لا يمكن أن تجدي فيه كلمة واحدة في غير موضعها، كما أن الشاعر لم يكن ينظم لينشر ولكن ليُرضي شاعريته العظيمة، وكانوا يسمونه شيخ الأدباء، وفي الحقيقة أن كلاً من شوقي وحافظ (وخصوصاً شوقي) كان يتأثر بأدب صبري وشاعريته، وأذكر أنني أنا وأحمد لم نكن فيما مضى نقع على قصيدة أو أبيات للباشا إلا حفظناها عن ظهر قلب لحلاوة شعره وخفّته على القلب.

وهذا هو الديوان بين يديك يصل إليك مع هذا الكتاب أو بعده بقليل فاقرأيه، وأطيلي النظر فيه، واحفظي منه ما استطعتِ فإنه جليل الفائدة كثير العائدة والسلام.

أُخوك أبو جعفر.

قبلات يد وخد للسيدة الوالدة.

والسلام على أهل الدار جميعاً الصغير منهم والكبير والمقمّط بالسرير.

سلامي وتحياتي للجميع.

****

رسائل إلى إبراهيم

هذه المجموعة تضم :

(١) رسالتين من السيد عبدالفتاح طوقان «والد الشاعر» إلى أسرته أثناء أسره في العام ١٩١٩م.

(٢) رسالة من الدكتور وجيه البارودي «صديق الشاعر» مؤرخة في العام ١٩٣٦م.

(٣) رسالة من أحد أصدقاء (أو أشقاء) الشاعر مؤرخة في العام ١٩٣٦م.

كتب هذه الرسالة السيد عبدالفتاح طوقان أثناء أسره، على ورقة مطبوع في أعلاها باللغة الانكليزية:

سجناء حرب

رقم ٢٣٣٣/١٥

ومختومة بخاتم البريد المصري (أو الإنكليزي في ذلك الوقت).

الرسالة كما وردت:

عن مصر الجديدة ٤ ذو القعدة ٣٣٧ الموافق ٢ أغسطس ٩١٩ نهار الجمعة إلى نابلس:

سيدي الأخ الحاج حافظ أفندي طوقان المحترم

سلام وتحية وإكرام، أخذت تحريركم المؤرخ في ١ ذو القعدة سنة ٣٣٧ وما به صار معلوم، تعرفون أنه أخذتم تحريركم من أبو سعدة لا مانع، وتعرفون أن الحاكم حرّر تأكيد ثاني بالإفراج عنا، نتأمل من الباري تعالى كل خير، تعرفون أن ولدنا إبراهيم حضر من المدرسة مدة التعطيل، عَرّفوه بصورة دايمة يتدارس هو وأخوه أحمد سوية، ويتكلموا سوية مع بعضهم باللغة الإنكليزية، ثم يلزم أن يعثروا على معلم مدة الفرصة والعطلة، بحيث عند فتح المدرسة يكون أحمد أول من يتقيد ويحصّل الشهادة.

إلى نابلس بخطي

مطابع جناب سيدي الأخ الحاج

حافظ أفندي طوقان المحترم

****

الرسالة الثانية تحمل عنوان محررها نفسه والذي ورد في الرسالة السابقة.
عن مصر الجديدة ١٧ صفر ٣٣٨ الموافق ١١ نوفمبر ٩١٩ نهار الإثنين إلى القدس.
جناب حضرة ولدنا العزيز أحمد أفندي طوقان حفظه الله تعالى:

بعد الرضا عليكم مع تقبيل وجناتكم، والثاني أخذت تحريركم الثالث المؤرخ في تشرين ثاني وتعرفونا بها أنكم أرسلتم لنا تحريرين وبه ذكرتم لنا أحوال المدرسة ودرجة انتظامها والصف الذي دخلتم به لآخر ما ذكرتموه، وبوقتها أرسلتُ لكم جواب على التحرير الأول والثاني عسى أن يكونوا وصلوكم، الآن تطمّنوني عن صحتكم وصحة أخيكم إبراهيم، فحمداً لله وسجداً إليه شكراً، ربنا يرضى عليكم ويوفقكم لما يحبه ويرضاه، ثم يا ولدنا يلزم بصورة دايمة تجتهدوا على دروسكم أنتم وأخيكم، واتلو تحريري هذا على أخيكم إبراهيم واعملوا على موجبه، حتى أكون مسرور منكم ومرتاح فكري عليكم، الأول أن تكونوا أولاد مربّيين نشيطين مجدين مجتهدين، ثانياً أن تكونوا معتمدين على أنفسكم ومشهود لكم بالأخلاق الحسنة، ثالثاً يلزم تكونوا مطيعين لأوامر المعلمين وتكونوا بغاية الامتزاج مع التلاميذ الذين بمدرستكم وعلى شرط من ذوي الأخلاق الحسنة، ويلزم تتجنبوا كل شيء تخرج منه الرذيلة، ويلزم تتمسّكوا بالفضيلة والمبادئ الشريفة، وبهذه الصورة تكونوا أصبتم كل الإصابة، وبهذا يتم فرحي وتكونوا خفّفتم عن مصابي وآلامي، وأطلب منه تعالى أن يجمعني بكم عن قريب بجاه النبي الحبيب إنه سميع مجيب.

كذلك قبلاً أرسلت لأخيكم إبراهيم تحرير عسى يكون وصله.

والدكم

عبدالفتاح طوقان

نومـــرو
٦٦٧٠٨

هذه الرسالة مرسلة إلى القدس/ الكلية الإنكليزية «جناب حضرة ولدنا أحمد أفندي طوقان النابلسي أحد تلامذة الكلية الإنكليزية حفظه الله».

✱✱✱✱

أوتيل الأهرام

بيروت - شارع فوش

لصاحبه (الحاج أحمد المهنا المغربي)

صاحب مطعم قهوة الحاج داود

في ٨ آذار، سنة ١٩٣٦

الأخ إبراهيم

تأخرتُ عليك بالجواب لكثرة ما وقع عندنا من الحوادث المؤلمة التي تتفتت لها الأكباد من شدة المظالم التي ارتكبتها السلطة المنتدبة في سوريا وخاصة في حماة.

نرجع إلى حديث الشعر والأدب فأقول إنّ أم اسامة قد مَزّقت الديوان المخطوط كل كل مُمَزّق، وأنا الآن أنقله من جديد حسب ما ترويه الذاكرة، والذي قد نسيته فقد أصبح في عالم النسيان.

والآن أبعث إليك بأبيات بعثتُ بها إلى رشيدة الحلبية:

تـأمـلـتُه في عـنـفـوان شـبـابهِ
يـذوق عـذابي أو يـذوق رضـابي
وعـاهـدته الـعـهـدَ الأكـيـد ولم تـكنْ
خـيـانـتُهُ عـهـدَ الـهـوى بـحـسـابي
أليس هـو الـصبُّ الـذي جـعل الـهـوى
جـنـاحـاً له من شـعـره فـسـمـا بي
لـقـد خـان عـهـدي في مـهـاةٍ لـهـا الـصِّبـا
ولـيس لـهـا سـحـري وحـسنُ خـطـابي
أنـا الـظـبْـيَـةُ الأدْمـاءُ والـقـمـرُ الـذي
إذا غـبـتُ جَنّ الـكـونُ بـعـد غـيـابي

فـكـيف قـبـولي بـالحـبـيب وقـد أتى
ثُـمـالـةَ أقـداحٍ وسُـؤرَ كَـعـاب
ولـلـزهـرة الأولى تـكـبّـدتُ لـوعـتي
وبـالـزهـرة الأولى وعـدتُ شـبـابي

وعندما أنتهي من نقل الديوان سأبعث بنسخة خطية لك، لتَمرّ بقلمك عليها فتشطب، تُشذّب، تحسب، عادتنا المرعية الإجراء.

لا تنس ذلك يا إبراهيم.

سأرجع غداً إلى حماة.

الدكتور

وجيه البارودي

****

القدس ١٩٣٦/٨/٢٧م

أخي الحبيب إبراهيم:

أقبلك وأشتاقك.. وبعد أتمنى أن يصلك هذا الكتاب وأنت هادئ الأعصاب طيب البدن والصحة، ولا ريب أن هواء الصحراء سيعيد إليك نشاطك وزهوك.

وصلك كتاب مستر رندل، ولا ريب أنك تقدر موقفه وشعوره ولا أظنك إلاّ نازلاً عند نصحه ورجائه ، وأحباؤك ومريدوك ينتظرون رجوعك بفارغ صبر.

وأنا أعدك وعداً شرفاً! أنني سأنفّذ ما وعدتك به، والله يعينني فلا تتأخر.. نداري الأمور في غيابك إلى أن تعود.. الجميع يهدونك السلام ، والدي يُقبّلك وينتظر رجوعك يا بارد.

سلامي وأشواقي إلى حضرة الأخ أحمد بك.

أخوك

✱✱✱✱

رسالة يتيمة غير مؤرخة

والشاعر فيها مجهول مكان الإقامة.

موجهة إلى شخص كنيته (أبو عفان).

هذه الرسالة «غير مؤرخة»

أخونا أبو عفّان، حفظه الله آمين:

قرأت المقامة الفتائية، ووصفك المسهب لما حدث لك وللقطط في الدار من جرّاء الجوع، وأرجو وقد عادت السيدة العسقولة إلى نابلس أن تكون قد بلغت مرادك، وضربت على يدها البخيلة بيد من حديد، ذكّرتنا بسقف الحيط، فجدّدنا البكاء عليه وابتدأنا برثائه فقلنا:

أوّاهُ يـــا صِـــدّيقُ سَـــقْفُ الحَـــيْطِ

قـــد كـــنتَ في دنـــيـــاكَ رُفْعَ الخَـــيْطِ

ثم غلبَ علينا النحيب فلم نستطع تتميم المرثية، ولعَل فدوى تُسعفنا بشاعريتها، ولعلّك تسعفنا بشاعريتك فنوفّي الفقيد حقّه في الرثاء.

الباب الثاني:

لم يزعجني ما جاء في كتابك من أقاويل بشأن تقرير مصيرك فأنا أتوقع مثل هذه الترّهات دائماً، فلا تبتئس بما كانوا يصنعون، كتبت للوالد تفصيلاً هذا الصباح وأرسلت الكتاب مع يوسف ليودعه البريد.

ثم إن «جميل علي» بلّغنا رسالتك أنا وأحمد، وكلانا معك ومن رأي واحد، وما دمت عازماً على إتمام تحصيلك للطب، فجامعة بيروت الأميركية، لا يوجد اليوم أقوى منها في هذا الفرع، وأنا أعلم أنها أضعفت سائر الفروع في سبيل ترقية كلية الطبّ فيها، والتمرين الذي يتاح للطلاب هناك لا يتاح لأي طالب في أعظم جامعات أوربا.

بقيت مسألة فساد الأخلاق، طبعاً هناك أدلة عليها، وهي أدلّة حية منها: أنا وأحمد وقدري.... وكلّ منا كما يشهد الجميع قطّاع طرق وفُسّاق وفجرة! ضاعت أخلاقنا

وتقاليدنا الدّينية بسبب الجامعات.. أنا أقمت تسع سنين في بيروت.. وأحمد وقدري كلٌّ خمس سنين، وهذه مدة كافية لتُغَيّر أخلاق الأنبياء وتفسدها والعياذ بالله، تطلب رأيي في المسألة، هذا هو:

أرسلْ إليّ صورتين لجواز السفر وشهادة ميلادك، أو ما يقابلها (شهادة من مختار الحارة) ولا لزوم لأن تسأل بعد ذلك عن شيء، ولا تستطلع رأي أحد، لا يزعجك أحد بأفكاره المتعفنة.

هذا هو المختصر المفيد، وفقك الله، فأنا أشّد الناس حاجة إلى طبيب من العائلة يُطبّبني بالمجان.

أخوك

أبو جعفر

****

«ملحق (أخير)»

بعد كتابة ما تقدم كان الأخ أبو العبد قد عاد من نابلس وحدّثني بما جرى بينك وبينه من الحديث:

١ – مسألة تحصيل الطبّ في بلاد الإنكليز لا يجب أن تتقدم على التحصيل في بيروت أولاً، وأكرر أن التمرين الذي يتاح لك في بيروت لا يمكن أن يتاح في أكبر جامعات أوروبا.

٢ – الهندسة الصناعية: – كلام فالصو – إنّ ثروة البلاد الطبيعية قد سبق وأصبحت امتيازات في أيدي شركات أجنبية، ثم إنّ مثل هذا العمل يتطلب رؤوس أموال تتكون من مئات الألوف من الجنيهات، أي رؤوس أموال من تعاون أغنياء البلاد وهذا من أحلام الشرق التي لم يحققها الله. وعندك مثال على ذلك المهندس الصناعي سامي وفا الدجاني يشتغل موظفاً في قلم الإحصاء التابع لدائرة المهاجرة، فانظر ما علاقة اختصاصه بوظيفته.

٣ – إذا عزمت فتوكل على الله ، لا تتردّد، لا يأخذك واحد بكلمة ويجيبك آخر بكلمة، طبّ اخلَص. وبهذا أستطيع أن أقف بجانبك وأساعدك إلى النهاية رغم أي صعوبة، أما إذا أخذت بالتردد والشروط فمسألة فيها نظر.

إبراهيم طوقان

****

قصائد شاعر الوطن

إبراهيم عبدالفتاح طوقــان

في جريدة فلسطين

مرتبة حسب التسلسل التاريخي خلال الأعوام
١٩٣٠ - ١٩٣٢ - ١٩٣٣ - ١٩٣٤م.

جريدة فلسطين

١٩٣٠/٧/٢٠

قصيدة لإبراهيم طوقان ألقاها في الحفلة الكبرى التي أقامتها الجمعية الإسلامية المسيحية في رام الله لوفود الدول العربية :

لَـجْـنـةٌ إثْـرَ لجـنـةٍ إثـر لـجْـنهْ
كَـلّـفـوا «الخـاطـرَ الـكـريم» بـهـدنهْ
ولجـانٌ تـلي وأخـرى تُـوَلّي
هـكـذا يُـبـدع الـسـيـاسيُّ فـنّه
حـسْـبُـنـا من خـصـالـهم أنْ عـرَفْـنـا
أيـهـذا الخِـدَاعُ أنّكَ مـهـنه
غـيـرَ أن المـكـروَه يـأتـيكَ أحـيـا
نـاً بـخـيـرٍ كـالخـيـر يـأتي بمـحـنه
مـثـلـمـا تـقـصف الـريـاحُ ولا تَـنْ
ـفَكُّ، حـتى تـسـوق لـلـجـدب مُـزْنَه
مـرحـبـاً بـالـوفـود شـكـراً لـقـومٍ
جـمـعـتْـهم خـطـوبُـنـا المـرجـحَـنّه
نـحن لـولا الخـطـوبُ مـا جـمـعَـتْـنـا
بـعـد طـول الأعـمـارِ إلا الجـنّه

****

«فلسطين»

١٩٣٠/٨/٥م

في «وديان» رام الله

أثناء نزوله في فندق (حرب بلاس هوتيل)

لا تَـعْـبـأنَّ بـطـيف الـهمِّ إن طـافـا
واقـصـدْ مـصـايفَ رامَ الـلهِ مُـصـطـافـا
وانـزلْ بـفـنـدق حـربٍ إنْ نـزلتَ تجـدْ
جـنّـاتِ عـدنٍ عـلى جـنـبـيه ألـفـافـا
لـكل حُـسنٍ نـصـيبٌ من بـدائـعه
شـاقت عـيـونـاً وأسـمـاعـاً وآنـافـا
غـرائبُ الحـسنِ أنّى شـئتَ مـاثـلـةٌ
تَـحـار فـيـهنَّ أنـواعـاً وأصـنـافـا

نـزلتُ فـنـدقَ حـربٍ فـانـثـنتْ هـربـاً
عـني الـهمـومُ وعـاد الـصفـوُ أضـعـافـا
ذكـرتُ فـيـه لآذارٍ فـواضـلَهُ
من بـعـد مـا سـامـني تـمّـوزُ إتلافـا
قـصـرٌ أطلّ عـلى «الـوديـان» مـرتـفـعـاً
لـو كـان يـنـطق نـادَى: «هـذه يـافـا»
تـخـالُهُ وهْـو رأسٌ في قـواعـده
إذا دجـا الـلـيلُ بـالأنـوار رجَّـافـا
لي لـيـلـةٌ من لـيـالي الأنس واحـدةٌ
مـا ضـرّ لـو أصـبـحتْ في الـعـمـر آلافـا
شـهـدتُ فـيـهـا وجـوهَ الـبِشْـر بـاسـمـةً
وفي «مـحـارب» روض الـلـطفِ مِـئْـنـافـا

والـغـيـدُ لـؤلـؤةٌ في جـنب لـؤلـؤةٍ
جـعـلْنَ من غـرفٍ في الـقـصـر أصـدافـا
بـرزنَ بـعـد طـواف الـكـأسِ مـتـرعـةً
يـجـبنَ عـازفـةً تـشـدو وعـزّافـا
وهبَّ لـلـرقص فـتـيـانٌ فـلـستَ تـرى
إلاّ مـعـاصمَ قـد رنَّـحْنَ أعـطـافـا

أقـبِلْ عـلـى كلّ مـشـروعٍ رأيتَ بهِ
خـيـراً لـنـفـسكَ والأوطـان قـد وافى
والمـالُ مـا دام للأوطـان مـرجـعُهُ
لا تـدعُ إنـفـاقَه في الـلـهـو إسـرافـا

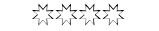

نشرت «فلسطين» بتاريخ ١٩٣٢/٨/٢٨ قصيدة إبراهيم طوقان بذكرى يوم حطين ألقاها بالنيابة عنه السيد يوسف طوقان والتي مطلعها:

عَـرِّجْ عـلـى حـطـين واخْـ
ـشَعْ ، يُـشْجِ قَـلـبَكَ مـا شـجـاني

****

«فلسطين» ، ١٩٣٣/٤/٢٦
العدد ٥١ - ٢٣١١ - ص ٥

«إلى الكاتب الأديب أبي الخطاب ذكرى عشية زهراء»

احْـبسْ يـراعَكَ يـا أبـا الخـطَّـابِ
قـد حَلّ بي مـا لم يـقع بـحـسـابي
تـلك الـقـصـيـدةُ لم أقلْ أبـيـاتَـهـا
لـكـنـهـا لمـزوّرٍ نَـصّـاب
هـذا أبـو سـلـمى ولا واللهِ مـا
نـكـأ الجـروحَ سـواه من أصـحـابي
هـيـهـات أن يَـخـفى عـليّ وكـلُّهُ
قـلـبٌ، بـلا بـابٍ ولا بَـوّاب
ويلٌ له مـا انـفكّ يُـوقظ راقـداً
ويـثـيـر أشـواقي إلى أحـبـابي

هل كَـفْـر كـنَّـةُ مُـرجِعٌ لي ذكْـرُهـا
مـا فـاتـني من عـنـفـوان شـبـابي
أم في صـبـايـاهـا وفي رُمّـانـهـا
مـا يـبـعثُ المـدفـونَ من آرابي
لـو تـنـفع الـذكـرى ذكـرتُ عـشـيّـةً
زهـراءَ بـين كـواعبٍ أتـراب
فـيـهنَّ آسـرةُ الـقـلـوبِ بـحُـسْـنـهـا
ودلالـهـا وحـديـثـهـا الخلاّب
روحٌ أخفُّ من الـنـسـيم وخـاطـرٌ
كـالـبـرق مـقـرونٌ بـحُـسْن جـواب
غُـرٌّ ثـنـايـاهـا وأشـهـد أنـهـا
ممـزوجـةٌ رَشَـفـاتُـهـا بـشـراب

نُلقي أحاجي بيننا فتثيرنا
للضحك خاطئةٌ وذاتُ صواب
ونُردّد الألحانَ بين شجيّةٍ
تُجري مدامعَنا وبين عذاب
ولقد نُعرِّض باللقاء لموعدٍ
فيها ونسلكها طريقَ عتاب
قمنا وقد سقط الندى وتزاحفتْ
سُجُفُ الغمامِ ثقيلةَ الأهداب
تُخفي محيّا البدرِ ثم تُبِينُهُ
عبثُ المليحةِ دوننا بنقاب
وجَفَتْ مضاجعَها الجنوبُ وملْؤها
خفقانُ مضطربِ الهوى وثّاب
بتْنا على صفوٍ وخوفِ تَفرّقٍ
للعاشقين مُهَيَّئ الأسباب
نَيْسانُ هان عليَّ حكمُكَ بالنوى
لمّا تحطَّمتِ المنى في آب
يا ليت من فَجعت فؤادي بالمنى
لم تُبقِ لي ذكرى تُطيل عذابي

نابلس

إبراهيم طوقان

ملاحظة للمؤلف: هذه القصيدة مثبتة في ديوان إبراهيم صفحة ١٣٠ باستثناء الأبيات الخمسة الأولى، ونوردها كاملة كما نشرت في جريدة فلسطين.

****

نشرت فلسطين لإبراهيم قصيدة (مناجاة وردة) العدد ٦٤ – ٢٣٢٩ بتاريخ ١٩٣٣/٦/١٦، والقصيدة مثبتة في ديوان إبراهيم طوقان ص ٩٥ – ٩٦، ومطلع القصيدة:

جنى عليكِ الحسنُ يا وردتي
وطيبُ ريّاكِ فذقتِ العذابْ

****

فلسطين ١٩٣٣/٧/٣م

العدد ١١١ - ٢٣٧٦ ، ص ٣

«إعلان الشعراء»

أنشد إبراهيم طوقان في المعرض العربي بجانب (الصابون العجيب) الذي يعرضه هذا الإعلان:

صـــابـــونُـــنـــا يـــا عـــذارَى
حـــيّـــا الـــهـــوى والـــديـــارا
شـــتَّى الـــضـــروبِ يـــحـــاكي
زهـــرَ الـــرُّبى والـــثـــمـــارا
يـــا مـن رأى الـــتـــين في الـــرَّوْ
ضِ عـــانـقَ الجُـــلّـــنـــارا[1]

☆☆☆☆☆

طِـــيْبُ الـــقـــرنـــفلِ عـــنـــدي
يـــا نـــاسُ بل طِـــيبُ لـــيـــلَى
فـــمَن تـــنـــشَّقَ مـــنـهُ
يَـــمِلْ إلى الـــعـــشق مَـــيْلا
يـــهـــدي الـــقـــلـــوب نـــهـــاراً
ويـــرسل الـــنـــور لـــيلا

☆☆☆☆☆

أبـــا شـــفـــيقٍ[2] تَـــقـــدَّمْ
قم والـــتـــمسْ طـــلـــبـــاتِكْ
لـــولاك يـــا نـــورَ عـــيـــني
لا لـم أبـعْ وحـــيـــاتِـك

إني ســـــأقْـــــصـــــر طَـــــرْفي
فَـــــنـــــادِ لي ظَـــــبَـــــيـــــاتك

☆☆☆☆☆

لـم يـــــــــبـقَ لـي مـن غـــــــــرامـي
إلا المـــــنى يـــــا صـــــبـــــايـــــا
قـــــد ذبتُ غـــــيـــــرَ بـــــقـــــايـــــا
فلا تُـــــذبْنَ الـــــبـــــقـــــايـــــا
«قـــــدري[٣]» أعـــــنّي عـــــلـــــيـــــهنْ
ـنَ يـــــا رفـــــيـقَ صِـــــبـــــايـــــا

✱✱✱✱

(١) الجلَّنار: زهر الرمان.

(٢) أبا شفيق: أبو سلمى.

(٣) قدري: قدري طوقان ابن عم الشاعر وهو عالم فلسطيني معروف.

ونشرت فلسطين قصيدة «عهد الجدود» بتاريخ ١٩٣٣/٩/١، العدد ١٦ – ٢٤٣٥، ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٣١ – ص ١٣٢ .

عــهــدَ الجــدودِ ســقــاكَ صــوبٌ عــهــادِ
ورجــــعتَ لـلأحــــفــــاد بــــالإســــعــــادِ

ووجدنا أن آخر بيتين غير مثبتين في القصيدة وهما:

فــإلى الأمــام بــني الــكــرامِ تَــقــدَّمــوا
وابــنــوا حــصــونَ المجــد كــالأجــداد
والــــعــــزُّ في نــــاديــــكمُ مــــا زلــــتمُ
مــتــضــامــنــين لــكم عُلاهُ يــنــادي

نشرت فلسطين قصيدة «نسر الملوك» المثبتة في ديوان إبراهيم طوقان ص ١٣٨ – ١٤٠ بتاريخ ١٩٣٣/١٠/١٩، والقصيدة مطلعها:

شــيّــعي الــلــيلَ وقُــومي اســتــقــبــلي
طــلــعــةَ الــشــمسِ وراءَ الــكــرملِ

«فلسطين»

١٩٣٤/٤/٢٢م

«سِرْ يا أبا الغيث»

بمناسبة حفلة تكريم شاعر سوريا (الزركلي) في نابلس قبل سفره إلى مصر:

فـــراقُكَ في المـــطـــلبِ الـــطـــيِّبِ
فـــشـــرّقْ إذا شـــئتَ أو غَـــرّب
وسِـرْ يـــا أبـــا الـــغـــيثِ عن مـــنـــزلٍ
رحـــــيبٍ إلى مـــــنـــــزلٍ أرحبِ
ومـــــاذا يـــضـــرّكَ ألاّ يـــكـــونَ
دمـــشقَ وعـــصـــفـــورةَ الـــنـــيـــرب
فـــلـــســـطـــينُ بـــعضُ دمـــشق الـــشـــآمِ
ووادي الـــكـــنـــانـــةِ منِ يـــثـــرب
ولـــــكنْ فـــــراقُكَ اشـــــجى المحبَّ
وشقَّ الـــــوداعُ عـــــلى المـــــعـــــجَب

****

نشرت فلسطين لإبراهيم قصيدة تحت عنوان (فلسطين مهد الشقاء) بتاريخ ١٩٣٤/١٠/١٩، والقصيدة مثبتة في ديوان الشاعر ص ١٤٧ – ١٤٨ وألقاها في حفلة افتتاح النادي الفلسطيني في بيروت ، ومطلعها:

إخـــوانَـــنـــا أهلَ الـــوفـــاءْ
أهـلَ المـــــــــودّةِ والـــــــــولاءْ

****

قصائد - شاعـر الوطن

إبراهـيم طوقـان

فـي جريـدة الدفـاع

مرتبة حسب التسلسل التاريخي خلال الأعوام ٣٤ - ٣٥ وقصيدة عام ١٩٣٩.

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «ورد يغيض» بتاريخ ١٩٣٤/٥/٦ يوم الجمعة، العدد ١٠ ص ١ ، وهي مرثية في حفلة تأبين موسى كاظم الحسيني، والقصيدة مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٤١ – ١٤٢، ومطلعها:

وجهُ القضيّةِ من جهادكَ مُشرقُ
وعلى جهادكَ من وقارك رونقُ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أطلقي ذاك العيارا» بتاريخ ١٩٣٤/٦/١١ يوم الاثنين، العدد ٤٠ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٤٣ – ١٤٤، ومطلعها:

أطلقي ذاك العيارا
قَدْكِ ضَيْماً واصطبارا

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «الشهيد» بتاريخ ١٩٣٤/٦/١٨ يوم الإثنين، العدد ٤٦ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٤٥، ومطلعها:

عبسَ الخَطْبُ فابتسَمْ
وطغَى الهولُ فاقتَحَمْ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «الإيمان الوطني» بتاريخ ١٩٣٥/١/١٣ يوم الأربعاء، العدد ٢٣٠ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٤، ومطلعها:

ليت لي من جماعة (السارِ) قوماً
يتفانَوْن في خَلاص البلادِ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «يا قوم» بتاريخ ١٩٣٥/١/١٨ يوم الجمعة، العدد ٢٢٦ ص ٥، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٣، ومطلعها:

هزلتْ قضيّتُكم فلا
لحمٌ هناكَ ولا دمُ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «الشيخ المظفر» بتاريخ ١٩٣٥/١/٢٨ يوم الإثنين، العدد ٢٣٤ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٥، ومطلعها:

انـــظـــرْ لمـــا فـــعل المـــظـــفَّـــرُ، إنه
نَـفَعَ الـقـضـيـةَ غـائـبـاً لم يـحـضـرِ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «السماسرة» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١ العدد ٢٣٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٦، ومطلعها:

أمّـا سـمـاسـرةُ الـبلادِ فـعـصـبـةٌ
عـــارٌ عـــلى أهل الـــبلادِ بـــقـــاؤهـــا

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أيها الأقوياء» بتاريخ ١٩٣٥/٢/٣ العدد ٢٤٠ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٧، ومطلعها:

قـد شـهِـدْنـا لـعـهـدكم بـالـعـداله
وخـتَـمْـنـا لجـنـدكم بـالـبـسـاله

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «زيادة الطين» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٠ العدد ٢٤٧ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٨، ومطلعها:

مَن كـان يُـنـكـر نـوحـاً أو سـفـيـنـتَهُ
فـإن نـوحـاً بـأمـر الـلـهِ قـد عـادا

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «إلى ثقيل» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٧ العدد ٢٥١ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٥٩، ومطلعها:

أنتَ «كـالإحـتـلال» زهـواً وكِـبْـراً
أنتَ «كـالإنـتـداب» عُـجْـباً وتِـيـهـا

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «تعزية مرفوعة إلى مقام البيت الهاشمي» بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٩ العدد ٢٥٣ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٠، ومطلعها:

بـني هـاشمٍ بـين المـنـايـا وبـيـنـكم
تـراثٌ ومـا تـغـفـو المـنـايـا عن الـوتْـرِ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «غايتي» بتاريخ ١٩٣٥/٢/٢٥ العدد ٢٥٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦١، ومطلعها:

إنّ قـلـبـي لـبـلادي
لا لحـزبٍ أو زعـيـمِ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «مناهج» بتاريخ ١٩٣٥/٣/٣ العدد ٢٦٣ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٢، ومطلعها:

أمـامكَ أيـهـا الـعـربيُّ يـومٌ
تـشـيب لـهـولِهِ سـودُ الـنـواصي

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أنتم....!!» بتاريخ ١٩٣٥/٣/١٠ العدد ٢٩٦ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٣، ومطلعها:

أنـتمُ المخـلـصـون لـلـوطـنـيّه
أنـتمُ الحـامـلـون عبءَ الـقـضـيّه

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «لمن الربيع؟» بتاريخ ١٩٣٥/٣/١٦ العدد ٢٧٤ ص ٩، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٤، ومطلعها:

أرأيتَ ممـلـكـةَ الـربـيـ
ـعِ يُـعـيـد رونـقَـهـا الـربـيعُ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «يا حسرتاه» بتاريخ ١٩٣٥/٣/٢٢ العدد ٢٧٧ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٥، ومطلعها:

يـا حـسـرتـا مـاذا دهى أهلَ الحـمى
فـالـعـيشُ ذلٌّ والمـصـيـرُ بـوارُ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «١٠٠٠» بتاريخ ١٩٣٥/٣/٢٧ العدد ٢٨١ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٦، ومطلعها:

أرى عـدداً في الـشـؤم لا كـثلاثـةٍ
وعـشـرٍ، ولـكن فـاقَهُ في المـصـائب

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «نعمة» بتاريخ ١٩٣٥/٤/١١ العدد ٢٩٣ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٧، ومطلعها:

يـقـولـون في بـيـروتَ أنـتم بـنـعـمـةٍ
تـبـيـعـونـهم تُـربـاً فـيـعـطـونـكم تِـبْـرا

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «أيتها الحكومة» بتاريخ ١٩٣٥/٤/٢٥ العدد ٣٠٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٨، ومطلعها:

عـلامَ احـتـراسُكَ لا أعـلـمُ
وفـيـمَ احـتـشـادكَ لا أفـهـمُ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «رثاء» بتاريخ ١٩٣٥/٤/٣٠ العدد ٣٠٩ ص ١، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٦٩، ومطلعها:

أيـهـا المـوتُ أيُّ مـجـلـسِ أُنسٍ
ووقـارٍ عـطَّـلتَ بـعـد سـعـيـدِ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «القدس» بتاريخ ١٩٣٥/٥/١٠ العدد ٣١٨ ص ٤، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٧١، ومطلعها:

دارَ الـزعـامـةِ والأحـزاب كـان لـنـا

قـضـيّـةٌ فـيكِ ضـيَّـعـنـا أمـانـيـهـا

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة «شريعة الاستقلال» بتاريخ ١٩٣٥/٦/١٦ العدد ٣٤٨ ص ٦، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٧٢ ، ومطلعها:

يـومٌ بـداجـيـة الـظلامِ ضـيـاءُ

وبـهـاؤه لـلـخـافـقـين بـهـاءُ

نشرت الدفاع لشاعرنا قصيدة ألقيت في حفلة تأبين الشاعر عبدالمحسن الكاظمي بتاريخ ١٩٣٥/٦/١٧ العدد ٣٤٩ ص ١٠، وهي مثبتة في ديوان إبراهيم ص ١٧٤ – ١٧٥، ومطلعها:

سَلْ جـنـةَ الـشـعـرِ مـا ألـوَى بـدوحـتـهـا

حـتـى خـلَتْ من ظِلال الحُسنِ والـطـيـبِ

نشرت الدفاع يوم السبت ١٩٣٩/٤/٢٥ في العدد ٥٨٨ ص ١ أبياتاً من نظم إبراهيم طوقان استخدمها كاتب مقال في جريدة الدفاع في معرض رده على شاعر عبري يتخيل بأن فلسطين أصبحت (أرض اسرائيل):

سمعتُ بأبياتٍ لكوهينَ ملؤها
أكاذيبُ من سيف الحقيقةِ تصرعُ
يقول: لاسرائيلَ كانت بلادُكمْ
فروحوا ارحلوا عنها ليدخلَ يُوشع
أحقٌّ لإسرائيلَ ما تسلبونَهُ
خسئتم فحقُّ العُرْبِ أقوى وأنصع
فلسطينُ يا مهدَ الدياناتِ ما الذي
أصابكِ قُولي ما لعينكِ تدمع
أجيبي لماذا أنتِ واجمةٌ أسىً
وقُولي لِمَ الاضراب؟ هل هو ينفع ؟
بلى إنه واللهِ قد يكشف البَلا
فتلتفت الدنيا إليها فتسمع
يجيء غريبُ الدارِ، يطرد أهلَها
ويلعب فيها كيف شاء ويرتع
ويدخل «شرعيّاً» ويأتي (مُهرَّباً)
وما معه إلاّ السلاحُ المفرقع
هُمُ النكبةُ الكبرى على كل كائنٍ
هُمُ الخطر المنصبُّ والشرُّ أجمع
يقول هنا الفلاّحُ وهْو مشرَّدٌ
على الأرض : قُولوا كيف أعنو وأخضع

إذا كـان حـقي عـنـد «كـوهـينَ» ضـائـعـاً
فـحـقّي لـدى «جـونْ بـولَ» يـا قـومُ أضـيـع
سـنـضـرب حـتـى نـسـتـردَّ حـقـوقَـنـا
وما شئتمو بـالمضربـين هنـا اصنـعوا

إبراهيم طوقان

نابلس

✱✱✱✱

نشرت جريدة الدفاع لشاعرنا قصيدة «وليمة المعكرون» بتاريخ ٤/١٥ يوم الإثنين، العدد ٢٩٦ ص ٤.

«وليمة المعكرون»

أتُـغـريـني بـحبّ المـعـكـرونِ
وتَـنْـصبُ لي الحـبـائلَ في صـحـونِ
وتـطـعـمـني الأفـاعي نـاهـشـاتٍ
فـقل لي كـيف تُـهـضم في الـبـطـون
فلا تـركـيبُ أمـعـائي حـديـدٌ
ولا في مِـعْـدَتي بـعضُ الحـصـون
ولا هي مـنـظـرٌ فـنـقـول.. سـاءت
مـذاقـتُـهـا، وسـرَّتْ لـلـعـيـون
ومـا الـتـزلـيقُ والـزوغـان مـنـهـا
سـوى طـبـعِ المـراوغِ والخـؤون
دعـونـا من ولـيـمـتـكم، فـإنّـا
سـمِـعْـنـا عن ولائم (مـوسـولـيـني)
فـإنّ الجـوعَ خـيـرٌ من طـعـامٍ
يـجيء المـوتُ مـنه عـلى فُـنـون

إبراهيم طوقان

نابلس

****

أحاديث إبراهيم طوقان الإذاعية

مراجعة كتاب عبقر

قصيدة للشاعر شفيق المعلوف

صدر حديثاً كتاب عنوانه «عبقر»، وهي قصيدة تقع في نحو من ١٣٠ صحيفة من نظم الشاعر شفيق المعلوف. وفي الكتاب مقدمة بقلم والد الشاعر المؤرخ المعروف الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف، نستطيع أن نعتبرها مرجعاً موثوقاً لما قاله الكتّاب والمؤرخون والشعراء في لفظة «عبقر» وما يتعلق بها من الكهانة والعرافة والسحر.

ويقول الأستاذ المؤرخ: إن (عبقر) (اليوم لا نعرف عنها شيئاً إلا النسبة إليها في كل ما هو جيد... حتى الظلم ، إذ قيل فيه «ظلم عبقري»، وفي موضع آخر يقول في رؤية الجن:

«من مزاعمهم أنهم كانوا يرون الجن ويظاهرونهم ويخاطبونهم ، فقال سمير بن الحارس الضبي يصف جنّاً نزلوا به وهو يوقد ناراً لطعامه فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه مما يدل على عدم أكلهم، فقال:

أتَوْا ناري فقلتُ مَنون قالوا :
سَراةُ الجنِّ ، قلتُ : عِموا ظلاما
وقلتُ : إلى الطعام ، فقال منهم
زعيمٌ : نحسد الإنسَ الطعاما
لقد فُضِّلتُمُ بالأكل عنّا
ولكنْ ذاك يُعْقِبكم سَقاما

وفي الكتاب صور فنية للرسام الإيطالي فرنكو شيني، وهي صور رمزية موفقة كل التوفيق ملائمة لمواقف القصيدة المختلفة، نشير منها بصورة خاصة إلى رسم البلد المرصود وعرافة عبقر. وهناك صورة فاتنة تمثل (أميرة الجنّ) عند الماء مستقبلةالبدر بجسمها الذي تستره غلالة شفافة تصف جسمها وتنمّ على محاسنه الكاملة وأجزائه اليانعة.

وحق لنا أن نفخر اليوم بما بلغه فنّ الطباعة العربية من إتقان في إخراج الكتب، يتجلى لنا ذلك في كتاب عبقر إتقاناً ونظافة وحسن ترتيب ووضوح صرف. على أننا لا نستطيع أن نكتم أسفنا من وجود جدول لبيان الخطأ والصواب في آخر كتاب صغير الحجم كعبقر. ولا ندري متى تتبرأ الكتب العربية من هذا العيب. ونتقدم الآن إلى القصيدة فنقول إنها تتلخص في رؤيا رآها الشاعر في يقظته – وكل ما في يقظاته رؤى – أقبل فيها عليه شيطان شعره يسير تحت غمامة، وكان الشيطان:

في فـــمه من سَـــقَـــرٍ جـــذوةٌ
مـنـهـا يـطـيـر الـشـررُ الـثـائـرُ
ووجـــهه جـــمـــجـــمـــةٌ راعـــني
أنـيـابُـهـا والمحـجـر الـغـائـر
كـــانمـــا مـــحـــجـــرهـــا كـــوّةٌ
يُـطلّ مـنـهـا الـزمنُ الـغـابـر

ويطير به شيطانه والشاعر متعلق بفقار ظهره إلى عبقر حيث العّرافة التي ولاّها الشاعر شياطينه، وإذا بهما أمام مدينة عامرة:

غـمـائمٌ زرقٌ عـلى مـتـنـهـا
مـنـازلٌ جـدرانُـهـا تـسـطعُ
جـهـاتـهـا الأربعُ مـرصـودةٌ
تحـرسـهـا الـزعـازع الأربع

ورأى الشاعر عفاريت هذه المدينة وهي تدرج كالنمل على أصناف المطايا:

فـمن يـرابـيـعٍ ومن أَنْـعُمٍ
إلـى ديـوكٍ وعَـظَـايـاتِ
من كل قَـزْمٍ لا يمَسُّ الـثـرى
بـرجـله الـصـغـرى المـدلاّة
نـشّـابـةُ الـقـنـفـذ مِـزْراقُهُ
وتـرسُهُ ظـهـرُ الـسُّـلَـحْـفـاة

وهذا المشهد يذكرنا بمشهد مثله في رواية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء ، حين يكون المجنون هائماً على وجهه فيصل قرية الجن، ويرى فيها هؤلاء الأقزام والعفاريت تمتطي الزواحف.

ونعود الى الرؤيا فنقول: مثل الشاعر أمام عرافة عبقر، وهي عجوز شمطاء طواها الكبر:

تـلفّ ثـعـبـانـاً عـلى وسْـطـهـا
يـكـمن في نـابـيه كـيـدُ الـقـدرْ
يـنـبـعث الـدخـانُ من شَـعـرهـا
ويـلـتـظي في مـقـلـتـيـهـا الـشـرر

فلما رأته دمدمت سخطاً لأنها لا تطيق مرأى البشر، وقالت له:

وددتُ يـا غـادرُ لـو أنـنـي
أطـلـقتُ ثـعـبـانيَ لا يـنـثـنـي
عـنـكَ فـيُـرديكَ ولـكـنـني
أخـشى عـلى الـثـعـبـان من غـدركْ
فـلـيس هـذا الـصِلُّ بـالأفـعـوانْ
بـل أنـتَ يـا إنـسـانْ
جـعـلتَ نـفـسَكَ أعـلى
فـي الأرض مـن ربِّـكْ
مـا دام حـبُّ الـذاتِ
يـنـخـر في قـلـبكْ

ولا يُخفي الشاعر خوفه من الموقف، فيطلب إلى شيطانه أن ينتقل به من حفرة العرافة فقد شعر – وحق له أن يشعر – أنّ:

لـلـنـفس في أوطـانـهـا حُـرمـةٌ
ضـائـعـةٌ في غـيـر أوطـانـهـا

ويعطف شيطانه عليه فيُذهب روعه بزيارة أميرة الجن الحسناء الفاتنة:

حُـلّـتُـهـا كـالـضـوء شـفّـافـةٌ
عن بَـشـرةٍ تـزيـد إشـعـاعَـهـا

كـــأنمـــا الـــشـــمسُ الـــتي كَـــوَّرتْ
من حـــلـــقـــات الـــنـــورِ أضلاعَـــهـــا

وقد سمعها الشاعر تغني نشيداً عذباً يفيض بما يكنّه صدرها من العواطف فتقول:

مَن لي بـــحبٍّ نـــورُه يـــنـــبـــلـجْ
من شـــررٍ مـــحـــتـــدمٍ في الـــمُـــقَلْ
من لي بـــثـــغـــرٍ لاهب تـــنـــفـــرجْ
ثـــغـــرتُه عن شـــعلات الـــقُـــبَل
من لي بـــذي قـــلبٍ خـــفـــوق أَلِجْ
في صـــدره وإن يـــكن يـــخـــتـــلجْ
لـعـاصف الموتِ اخـتلاجَ الشُّعلْ
مـــا نـــفْعُ روحٍ خـــالـــدٍ عـــشتُ فـــيهْ
إنْ كـــنت لم أَحـــضن ولم أُحـــتَـــضنْ
يـــا حـــاملَ الجـــسمِ ألا أعـــطـــنـــيهْ
وخـــذْ إذا شـــئتَ خـــلـــودي ثـــمن
روحيَ لا تـــبـــلى فـــمن يـــرتـــضـــيهْ
أحـــمل مـــا في نـــفـــسه من شـــجن
وشـــاحيَ الـــنـــاريّ من يـــشـــتـــريهْ
فـــإنـــني أبـــيـــعه بـــالـــكـــفن

وينصرف الشاعر مع شيطانه وهو في حيرة مما سمع ورأى ولسان حاله يقول: أننشد نحن البشر الخلود، وها إن عالَم الأرواح يتبرم أهله بخلودهم ويتمنون لو يكونون رهن الفناء، ويظل في حيرته حتى يمثل في حضرة الكاهنين سطيح وشقّ، فيجد سطيحاً كما وصفه المؤرخون القدماء:

مُـــخـــلَّعٌ جُـــرِّدَ من عـــظـــمهِ
مُـــذْ ربُّه قـــال له كنْ فـــكـــانْ
رِخْـــوٌ لـــو الـــتفَّ عـــلى نـــفـــسهِ
لخـــلْـــتَه فـــوق الـــثـــرى أُفـــعـــوانْ

وأما الكاهن شق:

قـــد شُـقّ من أعـــلى إلى أســـفلِ

ولم يـزل حـيّـاً بـشـطـر الجـسـدْ

ويأنس بهما الشاعر وينتهز الفرصة لينقل عنهما حكمة يعود بها إلى عالمه فيقول:

يـا كـاهـنَيْ عـبـقـرَ هل حـكـمـةٌ

أُعـدّهـا لـلـغـد بـين الـعـددْ

فيقول له سطيح:

هـيـهـات أن يـردعكَ الـزاجـرُ

إن لم يكُ الـزاجـرُ من حـكـمـتكْ

ثم يحدثه عن نفسه واختباره في الحياة ومصارعته للدهر حتى اكتفى كل منهما من مصارعة الآخر، وكانت النتيجة التي اكتسبها بالاختبار هي:

الحـكـمـةُ الحـكـمـةُ في بـسـمـةٍ

تَـمـخّضَ الـهـزءُ بـهـا في الـشـفـاهْ

ويتحدث الكاهن شق عن نفسه وحياته ، ويرى أن نصف خلقته كافٍ له لاعتقاده أنه لا حاجة للمرء بيدين اثنتين إحداهما تبني والأخرى تهدم، وأنه:

هـيـهـات أن تـسـتـنـيـرَ عـينٌ بـعـينْ

إن لم تـكن إحـداهـمـا مُـغـلـقَهْ

وأما كونه بنصف لسان فقد أفاده السكوت، والسكوت أفاده الحكمة، وأما كونه بنصف قلب فقد أقنعه ذلك لظفره بالنصف النيّر:

لا كان قلبٌ نصفُه أسودُ

وهذا النصف المبتور من جسده إنما هو الأغصان الفاسدة، أو هو مصادر الشر ولله وحده الكمال.

وينتقل الشاعر إلى غابة الحُور، فإذا منهن أشباح قد ذقنَ الهوى يحملن كؤوساً وهاجة لا خمر فيها. هؤلاء هنّ بنات الهوى في العالم الفاني قد ألقاهنّ الله في الجحيم – كما قال له شيطانه – «وسامهنّ الخسفَ والهوانا»:

يـلـغنَ في الجـمـر ويـغْـبِـبْـنَهُ
غَـبّـاً ويـرشـقنَ الـشـيـاطـيـنـا
أبـرمْنَ أهـلَ الـنـارِ حـتـى إذا
عـجُّـوا بـبـاب الـلـهِ شـاكـيـنـا
زجّ بـهنَّ الـلـهُ في عـبـقـرٍ
يـبـلـو بـهنّ الـعـبـقـريّـيـنـا

وقد سمعهنَّ الشاعر ينشدنَ في عذابهنّ فيقلنَ:

كـان لـنـا شـعـاعُ أحـداقـنـا
فـأقـبَلَ الـلـيلُ وأطـفـاهُ
والجـسـدُ الـبضُّ تـركـنـاهُ
تـدوسه أقـدامُ عـشّـاقـنـا

جُلاَّسُـنـا مـضَـوْا وأعـراسـنـا
حـجّـبـهـا المـوتُ وغـشّـاهـا
تَـفـرّقـوا وانـحـطـمتْ كـأسُـنـا
والـكـأسُ – يـا صـاحِ – شـربـنـاهـا

ويجد الشاعر نفسه بعد ذلك وسط صحراء في عبقر ملأى بالجماجم والرمم البالية، ويخبره شيطانها أنها رفات الشعراء العباقرة، فإذا مات الشاعر منهم نقله شيطانه إلى هذه الصحراء. ويرى (لشدة ذهوله) هذه الأرواح تغلغل صاحية في الهياكل العظميّة وتعيش فيها بذكرى أحلامهم العذاب، ويسمعها تحتجّ على ما يصنعه الأحياء بعدها من تخليد ذكراهم في الهياكل الحجرية والأنصاب، وتقول للشاعر:

قُلْ لـلأُلى يـــزخـــرف الـــلـــحـــودْ
إزمـــــــيـلُ حـــــــفّـــــــارهـمْ
أرواحُـــنـــا تـــبـــني قـــبـــابَ الخـــلـــودْ
بـــــغـــــيـــــر أحـــــجـــــارهم
وتحـــــــدج الـــــــوجـــــــودْ
بـــــغـــــيـــــر أبـــــصـــــارهم

كل ذلك لا يسرّ العباقرة ولا يرضيهم، وإنما الذي يهز رفاتهم ويرون كلّ أماني الحياة تفترّ في ثغره:

ولا تـــســـتـــطـــيبُ الـــنـــجـــومْ
غـــــيـــــر تـــــهـــــالـــــيـــــلهِ
ولـــيس تـــبـــكي الـــغـــيـــومْ
من غـــــيـــــر مِـــــنـــــديـــــلهِ

إنما هو (الحبّ) هذا هو هناء الأرض:

والأرضُ إن كـــانت جـــحـــيـــمـــاً لَهُ
وكـــان فـــيـــهـــا تـــهـــنـــأ الأرضُ

بهذا الختام يخرج الشاعر من قصيدته العبقرية موفقاً ظافراً.

موفقاً في أسلوبه وتنويع قوافيه وأوزانه، ظافراً بإبراز فكرته كما أراد لها أن تكون. فكتاب عبقر وناظمه الشاعر شفيق المعلوف كلاهما نفحة من عبقر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

****

حديث إذاعي

كان عدد «هنا القدس» الخاص بمدينة نابلس قد صدر وتداولته أيدي القراء، فلقيني صديق ظريف فقال: ما أراكم صنعتم شيئاً حين عرضتم مدينة نابلس في مجلتكم ولم تشيروا فيها إلى ميزّتين بارزتين من مزايا هذا البلد، قلت:.... عجيب... وما عسى أن نكون أغفلنا. قال: لقد أغفلتم الكنافة النابلسية فلم يرد لها ذكر، فخرج العدد تنقصه اللذة والحلاوة... ولم تخصوا الطائفة السامرية بكلمة أو رسم، فكان العدد خلواً من الظرافة والطلاوة.، قلت: هذا حق. أرجو أن أعوّض على القراء بملحق لمجلة «هنا القدس» يأتيهم عن طريق الآذان بإذاعة خاصة فنتلافى هذا النقص الظاهر، قال صديقي: وأفضل من ذلك بعد أن يكون الملحق عن طريق الأفواه، فالكنافة النابلسية لم تنل شهرتها بمجرد التحدث عنها أو وصفها، كما أن الطائفة السامرية لا سبيل إلى معرفتها تمام المعرفة إلا بمقابلة خاصة مع رئيسها والتمتع بحلو حديثه وأنس مجلسه وأخذ المعلومات عن طائفته من فمه.

وهكذا لم يكن بدّ من ذهابي إلى نابلس في زيارة خاصة حققت فيها الغايتين معاً فأكلت ما تيسر من كنافتها بالنيابة عن جميع المستمعين، ونقلت إليهم حديثاً من رئيس الطائفة السامرية الكاهن توفيق أفندي. وبيني وبين الكاهن توفيق معرفة سابقة، وكنت قد حضرت له مجالس كان فيها محور الظرف والأدب خصوصاً عندما كانت تنجلي عن مداعبات شعرية بريئة بينه وبين أحد الشعراء من مشايخ نابلس الظرفاء. وحسب المستمع من ذلك أن يعرف ما بين أهل نابلس وبين السامريين من المودة والامتزاج ورفع الكلفة. وفي الحق أن عادات السامريين الاجتماعية وتقاليدهم – بقطع النظر عن الشؤون الدينية طبعاً – فهم يتعاطون التجارة والصناعة كباقي الأفراد، ويشتركون في أفراحهم وأتراحهم، ويتهادون الهدايا ويتبادلون الزيارات، وفيما عدا أهل السلك الكهنوتي منهم، فهم وأهل البلد سواء في ملابسهم وفي غدوّهم ورواحهم لا يفرق الغريب بين أحد منهم كما أن المرأة السامرية تلبس الملاءة وتلزم الحجاب، أما ما يتميز به الكهنة فهو شعرهم الطويل المجدول معقوصاً تحت عمامة حمراء، وهذه من الأزياء التي بقيت لهم من عهد العباسيين حين ميّزوهم كفريق من أهل الذمة بلون العمامة الأحمر.

لقيت الكاهن توفيق في دكان لأحد أفراد طائفته فتبادلنا التحية وقلت له إنني في زيارتي هذه لنابلس لا قصد لي سواك. قال: خيراً إن شاء الله. قلت: خير أريد لمستمعينا حديثاً منك أطلعهم فيه على ما تروقهم معرفته عن تاريخ السامريين وأحوالهم. قال: تفضل إلى منزلي حيث نشرب فنجان قهوة وأطلعك على بعض المخطوطات وتُدوّن ما شئت تدوينه.

حيّ الياسمينة في نابلس – أيها المستمع الكريم – حي لا يمتّ بأقل صلة لهذه الزهرة الجميلة العطرة التي ينسب إليها، لعله سُمّي كذلك من باب تسمية الشيء بضده، فهو عريق في قدمه تنفذ إليه من طرق ضيقة وأزقة تنبعث منها الرطوبة ثقيلة مؤذية. ولعل بعضها لا يصح أن يطبّق عليها نظام إطفاء الأنوار فهي في ظلام دامس بطبيعتها لا ينفذ إليها في رابعة النهار بصيص من أشعة الشمس، ولا تدع رطوبة جدرانها وتكاثف أبخرتها سبيلاً إلى ضوء القنديل الضئيل أن يبرز من تلك الظلمات المتكاثفة.

في حي الياسمينة هذا وبين تلك الأزقة والأحواش تقع منازل السامريين، وفيها كنيستهم حيث تحفظ أقدم مخطوطه للتوراة عُرفت إلى الآن، أما أنا حين ذهبت مع الكاهن إلى منزله فلم أكن غريباً عن تلك المنعطفات بل كنت أسير فيها وأنا أعلم تماماً كيف أنقل خطواتي وأين أضع قدمي. ومرت بي خطرة من خطرات الطفولة العابثة حين مررت بفاخورة فذكرت كيف كنت أمر وبعض أترابي فنرى الأباريق الطينية مصفوفة على جانبي الحوض قد أخرجها الصانع لتهويتها قبل وضعها في فرن الفاخورة، فكنا نتخطّف زعابيب الأباريق الطرية ننزعها من مواضعها ونهرب بها تحت وابل من لعنات صاحب الفاخورة وشتائمه وأحجاره يقذفنا بكل ذلك جميعاً.

دخلنا المنزل صاعدين في درج قصير إلى ساحة سماوية، وجلسنا في غرفة تحتوي على مكتبة فيها كتب مختلفة منها المخطوط ومنها المطبوع، فعمد أحد أبناء الكاهن توفيق إلى بعض الكتب والدفاتر وأخذ يقرأ عليّ بعض صفحات من التاريخ السامري. فكان مما اطلعت عليه أن يعقوب عليه السلام اختار نابلس لسكناه ثم خصّ بها أعزّ أولاده يوسف عليه السلام ونُقلت إليها رفاته من مصر ، ولا يزال قبره فيها إلى الآن. والسامريون في نابلس يتحدرون من صلب أفرايم بن يوسف عليه السلام، أما الكهنة فهم من سبط أخيه لاوي.

وللسامريين في نابلس آثار كثيرة، فمنها العمود الذي نُقش عليه عهد الملوك في زمن يشوع بن نون، ولا تزال آثار الدرج الموصل بين العمود والهيكل الذي على جبل جرزيم ظاهرة.

وفي عهد الملك الظاهر بيبرس تحولت كنيسة السامريين إلى المسجد المعروف اليوم «بالخضرة» وفيه الغرفة التي خلا فيها يعقوب يبكي ولده يوسف عليهما السلام.

والسامريون اليوم في نابلس لا بل في جميع أنحاء المعمورة لا يزيد عددهم على مائتين وثلاثين نفساً ذكوراً وإناثاً، كباراً وصغاراً. ولا سبيل إلى تزايد هذا العدد إذا لم نقل إنه يُخشى عليه من النقص. فالسامريون لا تجيز لهم شريعتهم الزواج من غيرهم حتى ولا من اليهود، فأصبح النسل ضعيف البنية، وإذا علمت أن السامريين لعدة أجيال خلت كانوا يعمرون كثيراً من قرى نابلس: كعورتا وأمتين وبيت فوريك وسالم وروجيب وفرعطة وقيسارية، وأن منهم جموعاً كبيرة كانت في غزة ودمشق وفي العراق، وإذا علمت ذلك وعلمت أنهم تقلّص ظلهم حتى أصبحوا يضمهم كلهم حي واحد صغير في نابلس أدركت ما يهدد هذه الطائفة من خطر الزوال والانقراض. ولقد ذكر تاريخ الدول الإسلامية أسماء بعض السامريين الذين شغلوا بعض المناصب منهم: يوسف بن سعيد السامري، وصدقة بن منجي، ويعقوب بن غنايم، وكانوا أطباء درس الأول منهم صناعة الطب على تاج الدين بن أبي اليمن الكندي ، وشرح الأخير كتاب الكليات لابن سينا.

حدثني الكاهن توفيق قال: لم تفتر الحكومة البريطانية عن مساعدة الطائفة السامرية والعطف عليها، فقد حدث عندما أرادوا أن يجددوا بناء كنيستهم الحالية أن وجدوا بعض الصعوبة ، فأوصت جلالة الملكة فكتوريا الدولة العثمانية يومئذ بمساعدتهم وقدمت لهم منحة مالية لبنائها. واليوم وقد اضطروا إلى خروجهم من حيهم القديم إلى ظاهر المدينة وذلك على إثر الأضرار التي لحقت بمنازلهم في حي الياسمينة بسبب الزلزال سنة ١٩٢٧، وأصبحوا يخشون على توراتهم الأثرية الثمينة من التلف والضياع، وعندهم مايثبت أن هذه النسخة من التوراة يرجع عهدها إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة وثماني وسبعين سنة، وأنها كتبت في جبل جرزيم بقلم أبيشوع بن بنحاس بن العازر بن هرون أخي سيدنا موسى الكليم عليهما السلام، ولغتها عندهم هي اللغة العبرانية الأصلية التي نزلت بها الألواح ، وتشتمل على الأسفار الخمسة الأولى، وهي: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية.

وأكبر أعياد السامريين عيد الفصح وعيد الصوم يليه عيد العرش، ولكل عيد طقوس دينية خاصة لها تراتيل بموسيقى متنوعة ، كما أن للأفراح والمآتم موسيقى خاصة بها، وهي ليست مسجلة ولكنها تتناقلها الأفواه ويتوارثها الخلف من السلف.

****

مراجعة كتاب:
«الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية»
للأمير شكيب أرسلان

«قدمت بين يدي هذا التأليف رحلة قمت بها من ست سنوات في أكثر أنحاء إسبانية لأقرن الرواية بالرؤية وأجعل القدم نداً للقلم، ونويت أن أجعل الرحلة أساس الكلام وواسطة النظام وأن أضم التاريخ إليها، وأفرّع التخطيط عليها».

هذه فقرة من مقدمة الكتاب الذي نراجعه هذه الليلة لمؤلفه عطوفة الأمير شكيب أرسلان عضو المجمع العلمي بدمشق، وهو كتاب: «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» وآثارها لم تزل مهوى فؤاد المؤلف منذ الصغر، وفي شروح هذا الكتاب ومتنه مايدل على ذلك ويؤيده، وإن من يدأب على الاتصال بفرع من الفروع ويوسعه درساً وتنقيباً مدة تزيد على أربعين سنة، ثم يتبع ذلك برحلة يتوثق بها من معلوماته ويجيل ناظريه في آثاره الباقية وتتقرى يداه رسومه العافية، مثل هذا جدير بأن يعتبر تأليفه مرجعاً موثوقاً ومصدراً يؤمن معه العثار والشطط.

وفي كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الضخم – وهي قريبة من الألف – أثر من الجهد الكبير الذي بذله المؤلف في وضعه، والعناية العظمى التي أنفقها في تحقيقه وضبطه، فالكتاب «مَعْلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود» وما قال عنه المؤلفون قديماً وحديثاً ، عرباً وإفرنجاً.

تقع مقدمة هذا الكتاب في أربع عشرة صحيفة يفتتحها بديباجة بليغة يحمد فيها الله تعالى قبلة الكلام، ويصلي على رسوله الذي جنب بني آدم عبادة الأصنام، وسنمهم

من التوحيد نعمة دائمة لا تريم، وذروة عالية لا ترام، ويذكر آله وأصحابه نجوم الهدى وبدور التمام، الذين طلعوا بخيل الله على المشرق والمغرب بسيوف غير كهام، ففتحوا عذارى الممالك وأدركوا غرر الأماني بشدة الحزم لا بشدة الحزام.

ويرى المؤلف أن كلّ أمة من الأمم تجعل تاريخ سلفها هو العِلم المقدم والدرس المقدس لما في ذلك من وصل حديث بقديم... فإن كان الحاضر مماثلاً للماضي فمغزى التاريخ هو حفظ التسلسل ومنع التخلف، وإن كان الحالي مقصراً عن الخالي، وقد عادت البدور أهلّه، وذهب المجد إلا أقلّه، كان درس تاريخ السلف أفضل حوافز الاستباق إلى الكمال ليقال للناشئ: هكذا كان آباؤك فأين إباؤك، وهذا ما فعله أجدادك فأين جهادك، أيرضى أصحاب النفوس الأبية أن يقعدوا مع الخوالف وقد كان أوائلهم من السابقين الأُوَل، أو أن يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وأية أمة أجدر بمدارسة هذا العلم من هذه الأمة العربية ذات التاريخ الأمجد، والعز الأقعس، والعرق الأنجب، واللسان الأذرب، والجهاد الذي شرّق وغرب، أيام ملأت من الدهر مسمعيه، وضربت كل جبار على أخدعيه، وفرضت الذلة على جماجم الأكاسرة، وأطارت النعرة من معاطس القياصرة.

وأنت ترى أيها المستمع الكريم أن الأمير المؤلف قد قام في مقدمة كتابه خطيب منبر، وقائد عسكر، ببيان ساحر تفيض البلاغة من أسلوبه، وتنهل الفصاحة من ألفاظه.

هذا ولم يَدع المؤلف مرجعاً – عربياً كان أو إفرنجياً – إلا نقل ما قدر أن يعثر عليه فيه من الفصول المتعلقة بالأندلس. منهم: المسعودي، وابن حوقل، والمقدسي، والشريف الإدريسي، وابن الأثير، وياقوت، ولسان الدين بن الخطيب، والمقري، والقلقشندي. ومن الإفرنج: المستشرق دوزي الهولندي، ورينو الإفرنسي، وكوسيه، وأصحاب الإنسيكلوبيديه الإسلامية، وبعض علماء الإسبان، عازياً الروايات إلى أصحابها مع التعليق عليها في الحواشي بما يعنّ له مخالفاً أو موافقاً.

وإتماماً للفائدة رأى تزيين هذا الكتاب بأطالس جغرافية ورصّعه بتصاوير لم يسبق أن اطلع عليها العرب. وقد قسمه إلى قسمين : جغرافية، وتاريخ، ولم يحب أن يملأ الكتاب بالأرقام وإحصائيات مما قد تملّ النفس مطالعته.

ولندلّ المستمع على ما بذله الأمير المؤلف من الجهد في التنقيب عن الغامض من الروايات، نورد هذه الفقرة التي علّق فيها على قول المؤرخ الإدريسي حين ذكر أن «شنت ماريه» و«الفنت» مدينتان كانتا في الإسلام منازل القواطم. علق الأمير شكيب على ذلك بقوله:

«غريب جداً ذكر الإدريسي هؤلاء القواطم بدون التعريف عنهم بشيء ولذلك لم يفهم هذه اللفظة أحد من مترجمي كلام الإدريسي ومفسريه، ونحن أشكل علينا أيضاً فهمها ولم يذهب فكرنا إلى أنها الفواطم بالفاء (بدل القاف)، فالعلامة دوزي يظن أنها محرفة عن القواسم لأنه كان في الفنت فخذ يقال لهم بنو قاسم، ولا يزال هذا الاسم يطلق على مكان بشرقي الفنت إلى اليوم فيجوز أن يكون قيل فيما بعد القواسم، ثم تحرفت القواسم هذه بطول الزمن إلى قواطم.. ثم يقول الأمير المؤلف: «وأنا أظن أن القواطم غير محرفة عن القواسم بل محرفة عن القواطن (بالنون) وذلك نسبة إلى عبدالملك بن قطن الفهري أمير الأندلس المشهور الذي كان قبل بني أمية. وأما انقلاب نون قواطن إلى ميم فإن بين الحرفين تبادلاً كثيراً كما لا يخفى، فهذا وجه خطر ببالنا عن هذه اللفظة ، والله أعلم».

وفي هذا الكتاب عدا المعلومات الجغرافية المفيدة وتراجم الرجال الذين نبغوا في بلاد الأندلس وتحقيق الأسماء الإفرنجية وردّها إلى العربية، عدا ذلك كلّه وثائق قيّمة من صكوك البيوع والقروض وفداء الرقيق وتحريرهم مقابل أعمال يقومون بها عند مواليهم. وإليكم نموذجاً منها ولتطلعوا على كيفية التعامل عند أهل الأندلس:

جاء في صفحة ٤٠٣ من الجزء الاول:

«قاطعت الجليلة دونة قلنبة ابنة الوزير الأجل دون غطار فرننس أدام الله عزتها مع يعيش الخياط بن أحمد الغرناطي على حرية أسيرتها أم الهدى الجلياقيّة بمائتين مثقال فنشيه وثمانية مثاقيل ونصف صرف خمسة عشر ديناراً كل مثقال ليبتني يعيش المذكور بأم الهدى المذكورة ويتخذها زوجته ويخدمان بطليطلة في الذي يليق بهما دون رقيب عليهما ولا ثقاف. ويأخذان لأنفسهما فائدهما وعائدهما قَلّ أو أكثر، ويؤديان الفدية المذكورة وذلك مثقالين اثنين كل شهر. وإن لم يتكمل كل ذلك بتمام الشهر الثالث حاشا

مرض بيّن يمنعهما عن الخدمة أو هربا جميعاً أو خالطا قوماً سوا أو باتا بخارج طليطلة بغير أمرها أو شرب يعيش المذكور خمراً يخسران ما يتقدم لهما مدفوعاً. وترجع أم الهدى للأسر كما كانت أولاً.

ويؤدي يعيش الفدية على التنجيم (على التقسيط) وإن عجز على التأدية فقد فوّض للجليلة دونه قلنبه التقبض على جسمه ولا تسرحه إلا إذا أنصفها، وعليه أن يهدي لها كلّ عيد من ثلاثة أعيادها هدية دون عذر ولا تأخير وأن يخيط لها بدون أجرة لنفسها خاصة دون غيرها، وتاريخ هذا الصك ديجمبر عام ثلاثة وتسعين ومائتين والف».

وللكتاب فهارس عديدة مختلفة، تقع في نحو تسعين صحيفة وتشتمل على مواضيع الكتاب وأسماء الأعلام وأسماء الأماكن من بلاد وقرى وحصون وقلاع وأنهار وخلجان وجبال وأودية بألفاظها العربية القديمة، مع العلم بأن مقابلها الإفرنجي وارد في هوامش الكتاب عند ذكرها محقق تحقيقاً دقيقاً.

وقد طُبع الكتاب بمصر وتولت نشره دار الطبع والنشر بالمغرب، وهو على الجملة مشروع جليل سامي الغاية جزيل الفائدة، وهو في الحقيقة «معْلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن الأندلس ذلك الفردوس العربي المفقود».

وفي الأسبوع القادم (مساء الإثنين) نقدم للمستمعين نماذج طريفة مما اشتمل عليه الكتاب من الروايات والقصص وبعض تراجم الرجال والأشعار والأخبار، وكلها لذيذ ممتع، فإلى اللقاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

****

أبو العلاء المعري

فذلكة عن تاريخ حياة المعري:

ولد أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان في المعرة من أبوين عريقين في المجد والعروبة، وكانت ولادته سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة للمسيح. ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري ففقد بصره.

وكان أهله ذوي علم وأدب، واشتهر عدد منهم بالقضاء، فلم يُهمل أمر صاحب الترجمة بل اعتنى به أبوه فعلمه. ثم ذهب إلى حلب إلى مقر أخواله آل سبيكة فدرس السنّة هناك وكان لا يزال حدثاً إلا أنه كان فطناً ذكياً عجيب الذاكرة، ويروى عنه من ذلك روايات لا تكاد تصدق، ولم يبلغ سن الرشد حتى خرج لغوياً أديباً، وشاعراً وكاتباً.

وفقد المعري أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره فكان أثر ذلك عظيماً في نفسه لما كان يراه من حدبه عليه وعنايته به. ورثاه يومئذ بقصيدته النونية التي يقول في مطلعها:

نـقـمتُ الـرضى حـتـى عـلـى ضـاحك المـزنِ
فـلا جـــادني إلا عـــبـــوسٌ من الـــدجنِ

وفي هذه القصيدة تفلسفٌ يدلنا على نزعة الشك والتشاؤم التي صحبته في شبابه وشيخوخته ووسمته بتلك السمة الظاهرة.

وأتيح لأبي العلاء أن ينتقل في مدن سوريا ويتصل بمكاتبها المشهورة يومئذ، فدرس ما وقع عليه من الكتب في مكتبة أنطاكية واللاذقية وطرابلس، ودرس اليهودية والنصرانية، وسمع آراء الفلاسفة، ثم عاد إلى المعرة وقد بلغ العشرين من عمره، فكان واسع الاطلاع وافر التحصيل.

الا أن التفاؤل في الدنيا – على ما لقيه من العمى وفقد أبيه – كان لا يزال في نفسه شيء منه مما حمله على طلب الشهرة ببغداد فرحل إليها.

أبو العـلاء فـي بغداد - الحالة في بغداد وسوريا :

كانت الدولة العباسية في دورها الثالث، وهو الدور الذي كان الحكم فيه لبني بويه في العراق ولبني مرداس في سوريا، وقد يتخيل إلينا أنه دور انحطاط عام وليس الأمر كذلك: كان الانحطاط في سياسة الدولة، فقد خرجت الحكومة من أيدي العرب إلى خليط من الفرس والديلم، وجليّ ألا يكون لهؤلاء عطف على محكوميهم فجاروا واستبدوا، والنص على هذه السياسة في اللزوميات صريح جريء، وناهيك بما يتبع سوء الحالة السياسية من رزايا على اقتصاديات البلاد واجتماعياتها، وفي مثل هذا المحيط الفاسد المتلبد بالرياء والكذب عاش أبو العلاء.

أما الحالة العلمية فكانت لا تزال زاهرة في مختلف الأقطار العربية: كانت سوريا تتمتع بالنهضة التي قام بها سيف الدولة، وكانت بغداد حافلة بالعلم ورجاله.

نزل أبو العلاء بغداد وهي غضة نضرة بما تشتهيه نفسه، فغشي المجامع العلمية ومنها: مجمع الشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضى، ومجمع محمد بن عبدالسلام المصري، ومجمع الوزير سابور بن أردشير، ومكتبة الحكمة التي أسسها الرشيد، ولم يمض غير قليل حتى طار صيته في الآفاق وكثر أصحابه وعارفوه.

وود أبو العلاء لو بقي ببغداد لو لم يُكثِّر فضله حاسديه فيها، فقد قام من بين الطبقات الراقية رجال ينالون منه ويغضون من قدره، ولو استطاع أن يحتمل لما كان ذلك بضائره شيئاً، ولكنه فضّل الرحيل عنها فرحل وفي نفسه شوق ونقمة على أهلها، وفيما هو في طريقه إلى المعرة نُعيت إليه أمه فكان ذلك ضغثاً على إبالة، عزم معه على الانقطاع عن الدنيا وطلب العزلة ليقضي ما بقي من عمره يقلّب صفحات تذكاراته وتجاربه. هذه هي ناصية الطريق في حياة المعري التي وقف عندها ودار على شماله يستقبل ناحية السواد ولا يرى سواه.

عزلته - هل كان فيلسوفاً؟ :

ونفّذ أبو العلاء خطته الجديدة بدقة تامة فصرف وجهه عن متاع الدنيا زاهداً في طعامه وشرابه ولباسه، إلا أنه لم يكن في استطاعته أن يدفع عنه الناس ويعتزلهم، فقد كانوا يغشونه في داره الحقيرة يأخذون عنه اللغة والأدب ويقتبسون من حكمته وآرائه الفلسفية.

نقف قليلاً لننظر فيما قاله طه حسين في كتابه : «ذكرى أبي العلاء» مجيباً على السؤال: «هل كان المعري فيلسوفاً؟». يرى طه حسين أن تعريف الفيلسوف ينطبق على أبي العلاء ما دام الفيلسوف هو من كان له نظريات في الحياة يطبق عليها أعماله. ولا ننكر على طه حسين أن النظرة القديمة للفيلسوف كانت كذلك، إلا أننا لو نظرنا إلى شروط الفيلسوف اليوم لرأينا أن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً لما يقتضيه ذلك من وجود نظام فلسفي ثابت لديه، يسير عليه نظرياً وعملياً، والمعري لم يكن له ذلك، بل جلّ ما حاوله أن يجمع بين ما اقتبسه من درس الفلاسفة والاطلاع على آراء الحكماء والعلماء ليؤلف لنفسه نظاماً فلسفياً جديداً فأخفق. فهو إذن مفكر حكيم، لا فيلسوف.

وفاته وآثاره:

توفي أبو العلاء سنة ألف وثمان وخمسين وكان له من العمر خمس وثمانون سنة. وترك آثاراً قيّمة كثيرة لم يصل إلينا منها غير ثلاثة وهي: سقط الزند، واللزوميات، ورسالة الغفران، وهناك بعض رسائل قصيرة كان يحررها إلى أهله وأصحابه في أثناء أسفاره.

شعره - مقابلة بين اللزوميات وسقط الزند:

المعري رجلان: شاعر يتدفق عاطفة، ومفكر ليس لقلبه سلطان على فكره، إلا أنه، فيما أعتقد، قويت فيه ملكة النظم إلى حد هان معه أن ينظم العاطفة الصميمة والفكرة المجردة على السواء دون أن يكلفه ذلك كبير عناء. هو شاعر في سقط الزند، نظّام في اللزوميات، ولم يخل شعره في الأول من نظم متكلف كما أنه لم يتجرد من العاطفة في بعض ما التزم.

وأكاد أتهم نفسي أحياناً بالجور في حكمي هذا على الرجل لعلمي أن الفلسفة شيء يقصر باعي عن تناوله، وأن الحكمة وهي ضالة المؤمن لم أهتد إليها بعد حتى ألتقطها حيث أجدها، ولكن سرعان ما أعود إلى الثقة بنفسي حين أقرأ لأبي العلاء رثاءه في الفقيه الحنفي ورثاءه في جعفر بن علي بن المهذب (وهاتان من سقط الزند) فيستخفني الطرب لما فيهما من فلسفة وحكمة!!!

لا أراني إذا قرأت قوله:

تعبٌ كلّها الحياةُ فما أَعْـ
ـجَبُ إلا من راغبٍ في ازديادِ

قادراً على تفضيل هذين البيتين عليه:

لو أن كلَّ نفوسِ الناس رائيةٌ
كرأيِ نفسي تَنهَّتْ عن خزاياها
وعطَّلوا هذه الدنيا فما ولدوا
ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

أين الثريا من الثرى، وأين الطبع من التكلف، بل أين الإيجاز الخلاب من الإطناب المتمحل المملّ؟!؟

«تعب كلها الحياة» كلمات ثلاث تغنينا عن أوّل البيتين برمته، لا بل تستوقفنا رأساً لنفكر في الحياة وتعبها، ثم تذهب بنا في سلسلة متصلة من العبر والتجارب تربط ماضيها بحاضرها، فيأخذ كل امرئ منا على قدر ما ابتلاه من دهره حتى نعود إلى أنفسنا قائلين: «ما كان أحدٌ بصرَ هذا الأعمى...!!».

بينما في الحالة الثانية نقف لا لنفكر بل لنحلّ ألغازاً نحويةً وأحاجي صرفية، كأنْ نبحث عن خبر «إن» ونعلق الإضافات المتوالية والمجرورات بمتعلقاتها. فإذا تم لنا ذلك نقلنا البيت الأول على محكّ البلاغة والفصاحة فنفينا عنه الأولى لغموضه، والثانية لهذا القلق الظاهر في «رائية»، وذلك الحشو في قوله «رأي نفسي» بدلا من «رأيي». ثم نأتي إلى البيت

الثاني فنرى كلماته الكثيرة ليست بأكثر من معنى «الرغبة في الازدياد»، فنترحّم على أبي العلاء ونقول: الآن فهمنا، أراد أن يقول:

تعب كلها الحياة..... إلخ.

ويا ليته جمع في البيتين ما جمعه في البيت الواحد! فقد خسرنا ذلك التأثير البليغ الذي لا ينكر في قوله: «فما أعجب»، وهذا العجب مفقود في بيتي اللزوميات.

لعلي أظلم أبا العلاء في تدقيقي هذا، ولكن ما الحيلة وقد وقعت له في مرثيتيه هاتين على كثير من آرائه الفلسفية في الموت والولادة والفناء والخلود، فرأيتها – لما هي عليه من الوضوح والبساطة والقصد إلى المعنى – أدعى إلى التفكير، وأبلغ أثراً في النفس من ثلثي ما ورد في لزومياته عن تلك المواضيع حين عمّاها وأشكلها وتكلف فيها تكلفاً، ما كان أغناه عنه، وما كان أقدره على اجتنابه.

من هنا نشأ نفوري من فلسفة أبي العلاء وحكمته في لزومياته، ولعله السر في نفور الكثيرين من الفئة المتأدبة.

مبدأه:

مبدأ أبي العلاء ديني، وفي لزومياته وغيرها قصائد ومقطوعات تدل على أن الرجل لم يتردد لحظة في الاعتقاد بوجود قوة غير منظورة تُدبّر هذا الكون، إلا أنه لم يشأ أن يعتقد بالنبوات والكتب السماوية، فتديّنه فلسفي، خليط من (ما ورائية) أبيقور وأفلاطون وغيرهما، وكان يناقضهم في بعض آرائهم ويتبع البعض الآخر. هذا من حيث المعتقد النظري، أما القسم العملي من مبدأه فكان يقرّ ويعترف بترك الصلاة والحجّ، وحمل حملة شعواء على رجال الدين أجمع، وطعن في الفرق الإسلامية كالباطنية والإمامية والخوارج وغيرهم، وأراه أشبه بالشاعر الإنكليزي «شلي» في مبادئه، فقد كان هذا متديناً إلا أنه كان يرى الدين الحقيقي أعظم وأعلى من أن تحيط به سخافات الإكليروس وطقوسهم.

ومن هنا رُمي أبو العلاء بالإلحاد وكذلك شلي. ولو أنصف القوم ما اتهموه لأنه متين في دينه، ولكنه فرق ما بينه وبينهم أنه لم يسترح إلى معرفة الله حتى أشغل فكره بالبحث عنها والوصول إليها، وأما الآخرون فرضوا بها بُلْغة سائغة أُلقموها دون أن تكلفهم شيئاً.

ولأبي العلاء في نقد الدين طريقتان: التلميح، والمجابهة. أما التلميح فكان تلميح مقتدر شاكّ غير مجترئ على التصريح، لأنه أكثر ما اتبع هذه الطريقة في انتقاد النبوات والكتب والطقوس الدينية، وبعبارة أصرح نقول إنه كان يلمّح تلميحاً خفياً حين يهاجم أصول الدين الأساسية. وفي هذه الطريقة سخرية لذاعة موجعة، وأما المجابهة فأكثر ما نال بها الساسة والأئمة والزعماء وأصحاب الفرق فطعن عليهم وحاجّهم وآلمهم.

والحياة عند أبي العلاء لا قيمة لها. وإن من كان يرى حياته مصيبة لجدير به أن يعجب من تعلق غيره بها، والرغبة في الازدياد منها. ونظرته هذه ناشئة عن طبيعة التشاؤم التي تجسمت فيه إثر عودته من بغداد ولزومه بيته، ونتيجة هذه الطبيعة مبثوثة في شعر أبي العلاء كله. فقد هجا نفسه وتمنى الموت مراراً لوجوده في هذه الدنيا، ونعى على أبيه جنايته التي ارتكبها، وهي أنه كان سبب وجوده. وقد زين للناس تجنب الزواج والاستكثار من متاع الدنيا مما جره إلى تحبيذ الرهبانية، فقال: «ويعجبني عيشُ الذين ترهّبوا».

والذي أراه أن أبا العلاء تجاوز حدوده وأخطأ ، لأن الشر ليس في التناسل والاستكثار، ولكن في سوء التصرف الذي ليس بالصعب تلافيه إذا عمل الرجل والمرأة على تحصيل السعادة الدنيوية وعُنيا بتربية نسلهما.

وأكثر ما نرى التردد في طبيعة أبي العلاء عند ذكره الموت والبعث والفناء. فقد كان يقف عند هذه الأمور واجماً، وهو أحياناً يذهب مذهب فلاسفة اليونان في أن الروح إذا فارقت الجسد تلاشت كما يتلاشى نور المصباح عند إطفائه، وهذا مذهب الماديين القائلين بأن الروح نار يخمدها الموت. وتارة يذهب مذهب أفلاطون القائل بمفارقة الروح إلى عالم تلقى فيه النعيم أو العذاب، ولكننا نراه يشك في البعث مما يدلنا على ميله إلى الرأي الأول، ثم نراه لا يدري ما مصير الروح فيقول:

والــروحُ أرضــيّــةٌ في رأي طــائــفــةٍ
وعــنــد قــومٍ تَــرقّى في الــســمــاواتِ

وهو في صدر البيت يشير إلى القائلين بتقمّص الأرواح.

أما العقل فقد كان أبو العلاء يعوّل عليه في كل شيء. وهو عنده مقياس، ما ثبت عليه كان حقاً ، وما تردد فيه كان باطلاً، وهو يرى الناس يخادعون أنفسهم حين يقبلون كل ما قيل وما يقال، وهم عنده اثنان: «ذو عقل بلا دين وآخر دينٍّ لا عقل له».

الفرق بين التفاؤل والتشاؤم:

الأحياء متفاوتون في الطبائع متباينون في الأمزجة، وكل حيّ يرى الحياة بحسب ما طُبع عليه من الخير أو الشر، وبحسب ما رُكّب منه جسمه من حيث الصحة والاختلال، ومن هنا نشأت فكرة التفاؤل والتشاؤم.

كلنا رأى الناس وخالطهم ولحقته تجارب في حياته بين أثنائها الصالح والفاسد، إلا أن بيننا من يرى بالإمكان أن يجعل من الفاسد صالحاً إذا لم ير بالإمكان درءه، ويذهب إلى القول بأن الدنيا ملأى بالسعادة والهناء باسمة للجميع، فإذا ما عبست في وجهه يوماً وقعد به الحظ لم ينكر ذلك بل يعزوه إلى سوء تصرف من عنده، أو إهمال نشأ عنه ما لحق به من الأذى، فهو جاهد في تلافيه وتجنبه، هذا هو الرجل المتفائل الذي ينظر إلى الوجه المنير من الحياة.

غير أن هنالك من أساء الظن بالحياة، ورآها زائفة ملأى بالشرور خلابة البروق، ولم يعد يفكر في سبيل لإصلاحها لأن فسادها، على ما يعتقد، جوهري متأصل وليس بعرضيّ ، فاستحال الإصلاح، ولا خير في البحث عنه، هذا هو الرجل المتشائم الذي ينظر إلى الوجه المظلم من الحياة.

أما الحياة نفسها فواحدة ثابتة منذ كانت إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

كاتبه

إبراهيم طوقان

****

الشاعر ولي الدين يكن

ولي الدين شاعر مظلوم حيّاً وميتاً. ظلمه الناس وظلم نفسه، وإنما هي حالة الأديب الذي يعيش ليرضي نفسه وفنه لا ليرضي الناس ويجاملهم في أهوائهم. وإذا كان الأديب من هذا الطراز فقلما تجده حريصاً على آثار قلمه، يدوّنها ويعتني بجمعها وطبعها فكأنها جزء من الطبيعة، ترتجل الجمال ارتجالاً وتلقي به جزافاً وهي أمينة من نضوب مواردها وانقطاع ينابيعها.

قال أخو وليّ الدين جامع ديوانه: «نطق ولي بالشعر قبل أن يبلغ العشرين، وكان له شعر كثير نُشر في الصحف أحرقه برمته منذ ثلاثين سنة».

أما هذه المجموعة التي بين يدينا فتقع في نحو مئة وثلاثين صحيفة، قصائدها ومقطعاتها في كل غرض من أغراض الشعر، تشف السياسة والوطنية منها عن صراحة وجرأة، وناهيك بالرجل صريحاً جريئاً حين يرفع صوته مع الحق ويجاهر بالحرية في الزمن الحميدي، وناهيك به قوي النفس ثابت الإيمان حين يلقى النفي والاضطهاد في سبيل مبادئه وأفكاره:

غَـــرَّ الأعـــادي انـــكـــســـاري
والانـــكـــســـارُ يـــغـــرُّ
وســـرّهـم طـــولُ نـــفـــيي
ومـــثلُ نـــفـــيي يـــســـرّ
وأنـــنـــي ســـوف أقـــضـي
هـــنـــا ومـــا ليَ ذِكْـــر
لـــكنَّ بـــعـــدي رجـــالاً

والـــفـــجـــرُ يـــتـــلـــوه فـــجـــر
مـــــرَّتْ عِـــــذاب الـــلـــيـــالي
وكلُّ عَـــــــذبٍ يَـــــــمُـــــــرّ
وألـــــزمُ الـــصـــبـــرَ كُـــرْهـــاً
ولـــيس لـــلـــحـــرّ صـــبـــر
وأسْـــــلك الحِـــــلْمَ نـــفـــسي
ومَـــســـــلكُ الحِـــــلْمِ وعـــــر
لـــبّـــيك يـــا مـــجـــدَ قـــومي
لـــــــبَّى نـــــــداءَك حُـــــــرّ
رضـــــــيتُ ســـــيـــــواسَ داراً
ومـــــا بـــــســـــيـــــواسَ شـــــرّ

وسيواس هي منفاه الذي اختاره له عبدالحميد، وقد مكث فيها سبع سنوات حتى إعلان الدستور سنة ١٩٠٨. وإليك أيها المستمع الكريم هذه الزفرة الأليمة:

يـــبـــكي بَـــنـــوكَ ويـــضـــحك الـــزمنُ
مـــــاذا أصـــــابكَ أيـــهـــــا الـــوطنُ
مـــا أوشـــكتْ أن تـــنـــتـــهي مـــحنٌ
إلاّ وجـــاءت بـــعـــدهـــا مـــحن
أمّـــا الـــرســـومُ فـــإنـــهـــا درستْ
أمّـــا الـــرجـــالُ فـــإنـــهم دُفـــنـــوا
لـــولا بـــقـــايـــا مـــعـــشـــرٍ سلَـــفـــوا
لـــتـــنـــبّـــهتْ من نـــومـــهـــا الـــفـــتن
الـــعـــصـــرُ راجت ســـوقُ بـــاطـــلِهِ
فـــــالحقُّ فـــــيـــه مـــــا لـه ثـــــمن
فَـــطِن الـــبـــرايـــا لـــلـــذي وقـــعـــوا
فـــيه وبـــعضُ الـــنـــاسِ مـــا فـــطـــنـــوا

يـــا قـــومُ هُـــبّـــوا من مـــضـــاجـــعـــكم
طـــــال المـــــدى حـــــتى مَ ذا الـــــوسن

ولله دره حين يقول:

يـــا ديـــاراً خـــلَتْ فـــأمـــستْ خلاءَ
أحـــسن الـــلـــه في بـــنـــيك الـــعـــزاءَ
عـــوّدتْـــنـــا الأحـــزانُ هـــذي الـــلـــيـــالي
كم رثـــيـــنـــا وكم أطـــلـــنـــا الـــرثـــاء
لـــو تجـــوز الـــشـــكـــاةُ في الأمّ يـــومـــاً
لـــشـــكـــا الـــنـــاسُ كـــلُّـــهم حَـــوّاء
هَبْ لـــنـــا يـــا زمـــانُ راحـــةَ يـــومٍ
فـــإذا مـــرّ، عُـــدْ فـــهـــاتِ الـــعـــنـــاء
نـــكـــتـــفي مـــنكَ بـــالـــقـــلـــيل من الـــعـــد
لِ، وإن كـــــنتَ لا تحبّ اكـــــتـــــفـــــاء

رحم الـــلـــهُ طـــاهـــراتٍ جُـــســـومـــاً
أصـــــبـــــحـــتْ في فلاتِـهِ أشلاء
لـــيس فـــيـــهـــا «صـــخـــرٌ»، وكلٌّ قـــتـــيلٍ
تـــاركٍ بـــعـــده له «خـــنـــســـاء»
دهـــمـــتْـــهـــا جـــنـــدُ الـــنـــوائبِ حـــتى
ملأتْ من رفـــاتـــهـــا الـــدهـــمـــاء
أضـــرمتْ نـــارَهـــا عـــلـــيـــهـــا فـــمـــا تُـــبْ
ـــصِـــرُ أرضـــاً ولا تـــبـــين ســـمـــاء
واســـتـــطـــاب الـــردى نـــحـــيبَ الأعـــادي

ظنَّ ذاك النحيبَ منها غناء
والـيتامى لمَّا بكتْ أطربتْهُ
فدهاها ليستزيدَ البكاء
أبداً يغتذي اللحومَ ولا يَشْـ
ـربُ عند الظماءِ إلا الدماء
ظالمٌ، حُكْمُه طويلُ بقاءٍ
لا حَبَا اللهُ ظالمين بقاء
ارحمي يا قلوبُ هذي الضحايا
فهْي ترجوكِ لا تردِّي الرجاء
إن إخوانَنا الذين تردّوا
قد دَعونا فما أجبنا الدعاء
وإذا نحن ما استطعنا دراكاً
أفلا نستطيع يوماً وفاء
ليت شعري وهم ينادون: «يا رَبْ
بِ خلاصاً أما سمعتَ النداء»
إن يَبيدوا فقبلهم باد ناسٌ
ليس في الناس من يردّ القضاء
نرحم الشيخَ وهْو يندب حزناً
هل رأينا في خِدرها العذراء
فَهْي تبكي أباً، وتبكي أخاً، ثُمْ
مَ تكفّ البكاءَ منها حياء

أمّا غزله فَذَوْبُ النفس وجذوة الفؤاد، وهو في نجوى الأحبة فيّاض الشاعرية مبتكر الأسلوب. قال رحمه الله من قصيدة بعنوان: الشاعر والليل والطيف:

الله في وجدٍ وفي مأملِ
من لي بعَوْد الزمن الأوّلِ
قد كنتُ أشكو عُذّلي في الهوى

وهـــا أنـــا أثـــني عـــلى عُـــذّلي
مـــا أولعَ الـــقـــلبَ بمـــا يـــجـــتـــني
وأفـــتنَ الـــعـــينَ بمـــا تجـــتـــلي
أهـــفـــو لـــســـهـــدي لـــيت لي مـــثـــلَهُ
ولـــيـــتـــني في لـــيـــليَ الأَلـــيل
إذ أتـــــرك الأنجمَ في أفـــقـــهـــا
شـــوقـــاً إلى نـــبـــراسيَ الـــمُـــشْـــعَل
وأُحـــكم الـــكـــوَّةَ دون الـــصَّـــبـــا
وأُوصـــد الـــبـــابَ عـــلى الـــشـــمـــأل
كُـــتْـــبي تـــنـــاغـــيـــني فـــتـــمـــشي بـــهـــا
عـــيـــنـــايَ من شـــكلٍ إلى مُـــشْـــكَل
مـــا بـــين أوراقٍ بـــهـــا غـــضّـــةٍ
وبـــــين أوراقٍ بـــــهـــــا ذُبّل
في حُـــجـــرةٍ كـــالـــقـــلب في ضـــيـــقـــهـــا
لـــو حـــمـــلتْ غـــيـــريَ لم تحـــمل
تـــســـمع مـــني في ســـكـــون الـــدجى
مـــا يـــســـمع الـــروضُ من الـــبـــلـــبل
إنـــا اقـــتـــســـمـــنـــا الـــليلَ مـــا بـــيـــنـــنـــا
لـه الـــكـــرى في الـــلـــيل، والـــســـهـــدُ لي

يـــا خَـــلَـــواتِ الـــوحيِ في تـــيـــههِ
ملأتِ قـــلبَ الـــشـــاعـــرِ المخـــتـــلي
ســـوانـــحي مـــنكِ، وفـــيكِ انجـــلتْ
فـــأنـــزلي الآيـــاتِ لي أنـــزلي
يـــا طـــيـــفَـــهـــا لا تـــرتجعْ مُـــعْـــجَلاً
لا تُـــقـــنعُ الـــزورةُ من مُـــعْـــجِل
إنـــيَ وحـــدي حـــجـــرتي مـــأمنٌ

فـــأنسْ إلى صَـــبّك لا تجـــفل
أُدْنُ قـلـــيلاً قـــد أطـلـتَ الـــنـــوى
جُـــدْ مـــرّةً بـــالـــله لا تـــبـــخل
لـــو لم تـكن تـشـتـاقـني نـفـسُـهـا
يـا طـيـفَـهـا، مـا كـنتَ بـالمـقـبل
عـيـنـاكَ عـيـنـاهـا كـذا كـانـتـا
والـــوجهُ ذاك الـــوجه لم يُـــبْـــدل
أعـرف لحـظَـيْـهـا بـرغم الـنـوى
فـكم أصـابـا قـبلُ من مَـقْـتل
إن كـان هـذا مـا دعَـوْه الـهـوى
فـمـثلُ هـذا الـلـيلِ لا يـنـجـلي
يـا مـهـجـتي يـا جَـلَـدي، يـا صِـبـا
إن لـم أمت وَجْـــداً فـلا بـــدَّ لـي

ومن قوله في قصيدة الملك المظلوم:

مـــكـــانكَ الأفقُ فـــمـــا أنـــزلَكْ
بَـــدَّلتَ عـــنـه الأرضَ أم بـــدَّلكْ
يـا مَـلَكَ الـلهِ أيـرضى الـمَـلَكْ
مُـلْكَ الـثـرى من بـعـد مُـلْك الـفـلك
كـلاّ فـلـن تـألفَ هـذا الأنـامْ
خُـلـقتَ من نُـورِ وَهُمْ من ظلامْ

أين جـنـاحـاكَ؟ مـتى فـارقـاكْ؟
قـد سـقـطـا في الأرض أم في الـسـمـاكْ؟
لـو صـدقـاكَ الـودَّ مـا زايلاكْ
بل صـعّـدا لـلأفق واسـتـصـحـبـاك
إنَّ لَـلأَوْلـى بـهـذا المـقـامْ

مــثــلكَ لا يــهــنــأ فــوق الــرّغــامْ

مَنْ عــنــدنــا يــفــهم هــذا الجــمــالْ ؟
أيُّ امــرئٍ يــهــوى صــفــاتِ الــكــمــالْ ؟
أنتَ خــيــالُ الحبِّ نــعم الخــيــالْ
حــذارِ لا تــدخلْ قــلــوبَ الــرجــال
تــلك قــلــوبٌ دهْــرُهــا في اضّــطــرامْ
كــأنــهــا مُــوقَــدةٌ بــالأثــام

وإليك هذه القطعة الشاعرة، بل الآية الساحرة بعنوان: لؤلؤ الدمع:

لا تــذكــريــني فــإنّ الــذكــر يُــرجِع لي
عــادات وجْــديَ في أيّــاميَ الأُوَلِ
وعــالجــيــني بــيــأسٍ مــنكِ يــنــفــعــني
الــبــرْءُ بــالــيــأس يُــنــسي الــسقمَ بــالأمل
طــاب الــتــجــافي فلا تــأساكِ قــسمــتُهُ
إذا مــلــلتِ فــمــا يُــشــكــيكِ من مــلل
دعي لــيــاليّ، أوطــاني تــطــالــبــني
بــهــا فلا تــشــغــلي نــفــسي بلا شُــغُل
وكــفــكــفي الــدمعَ هــذا الــدمعُ يــفــتــنــني
أشــجى الــشــكــايــاتِ عــنــدي أدمعُ المقل
هي الــلآلئُ تــطــفــو في المحــاجــر، لا
تــخــتــار لــلــسَّــبْح إلاّ مــوضعَ الــكَــحَل
لــو لم أكن شــاعــراً أصــبــحتُ حــاسدَهــا
فــلــؤلــؤُ الــدمعِ مــنــه لــؤلــؤُ الــغــزل

وفي ديوان وليّ الدين رائعة هي في رأيي واسطة ذلك العقد الفريد، وهي قصيدته القصصية التي أودعها وصف كليوباترة وهي تحاسب نفسها في الساعة الأخيرة وقد جعلها على لسانها، ومطلعها:

طـــاب روضي وأثـــمـــرتْ أشـــجـــاري
فـــأعـــيـــدي الـــغـــنـــاءَ يـــا أطـــيـــاري
أنـــا شـــمسٌ في مـــشـــرق الحـــسنِ والمـــلْـ
ـكِ، ولـــلـــعـــاشـــقـــين نُـــوري ونـــاري
أتـــهـــادى بـــين الـــغـــصـــونِ فـــتـــنـــهـــا
رُ، وتُـــغـــضـي نـــواظـــرُ الأزهـــار
وأكفُّ الأوراقِ تـــنـــثـــر لي الـــدرْ
رَ، فـــأمـــشـي عـــلى غـــوالـي الـــنّـــثـــار
والـنـسيمُ الـعـلـيل في الـروض يَـسـتـشْ
ـــفِي بـــلـــثـم الـــثـــرى عـــلى آثـــاري
وتـــظلّ الـــســـمـــاءُ تحـــســـد وجهَ الْـ
أَرْضِ أنّى ســـحـــبـتُ فـــضْلَ إزاري
إيهِ يـــا صـــبحُ هل أَتـــيتَ بـــخـــيـــرٍ
طـــال رعـــبي من ســـيِّئ الأخـــبـــار
إنَّ عـــمـــراً مُـــقـــسَّـــمـــاً بـــين مُـــلْكٍ
وغـــــرامٍ لأَتْـــــعَبُ الأعـــــمـــــار
ليَ في دولـــة الـــقـــلـــوبِ احـــتـــكـــامٌ
هـــــــو فـــي نجـــــــوةٍ من الأوزار
كـــره الـــنـــاسُ لي الـــفـــنـــاءَ فـــأبـــقـــوا
شَـــبَـــهي في هـــيـــاكلٍ من نُـــضـــار
وأبَـــوْا أن تـــكـــون أشـــكـــالُ حـــســـني
مُـــذِّلـــتْ في الـــصـــخـــور والأحـــجـــار
عـــجـــبـــاً قـــرّتِ الـــرعـــيّـــةُ في أَمْـ

ـــني ولـــكنْ مـــا قـــرّ فـــيه قـــراري
وأفـــــاد المـــــلـــــوكَ في دول الأَرْ
ضِ اقـتـداري ولم يُـفـدني اقـتـداري
لـــهْفَ نـــفـــسي عـــلى حـــيـــاةٍ وفيٍّ
بَـــزَّهـــا طـــائـــعـــاً لـــرعي ذِمـــاري
في حـشـاه نـارٌ من الـوجـد لـيـستْ
من وقـــــودٍ جـــــزْلٍ وزَنـــــدٍ وار
رام إطـــفـــاءَهـــا فـــلم يـــلقَ مـــا يُـــطْ
ـفـئـهـا غـيـرَ سـيـفه الـبـتّـار
فجرى النصلُ في الحشاشة جرْيَ السّ
سَـــيْلِ دَرْءاً في دافع الـــتـــيّـــار
يـا قـلـوبَ الـعـشّـاقِ مـا لَكِ حـيـرى
المـنـايـا كـثـيـرةٌ فـاخـتـاري

☆☆☆☆☆

بـلّـغـوا الـغـاشمَ الـذي رام حـربي
فـتـخـطّى ديـارَه لـديـاري
انـا لا أسـتـلـذّ مُـلْـكـاً بـذلٍّ
أنـا لا أسـتـلـذّ عـيـشـاً بـعـار
حثَّ أسـطـولَه وأقـبل يـسـعى
في جـبـالٍ عـلى جـبـالٍ جَـوار
وإذا أسْـهُمٌ بـغـيـر انـتـظـارٍ
وإذا غـــــارةٌ بـلا إنـــــذار
كـان جـبّـارَ مـعـشـرٍ فـتـولىّ الْـ
ـلَـحْظُ إذلالَ ذلك الجـبّـار
نَـبَـذ الـصـولجـانَ والـصـارمَ الـقَـضْـ
ـبَ هُـيـامـاً بـدُمْـلجٍ وسِـوار

هــيّــئي يــا إمــاءُ مــجــلسَ أُنْــسي
وأعــدّي الــصــبــوحَ لي يــا جــواري
ولــتــقمْ هــذه الــقــيــانُ وتــشــدو
مــطــربــاتٍ ضــربــاً عــلى الــقــيــثــار
ولــيــقمْ بــين أكــؤسِ الــراح عــرشي
ثــابــتــاً أُسُّه رفــيــعَ المــنــار
هــان عــنــدي أن أخــلــع الــهمَّ والــتــا
جَ جــمــيــعــاً إذا خــلــعتُ عــذاري

فــوداعــاً يــا مــجــلــســاً كــنتَ أُنْــســاً
أتجــلّى فــيــه عــلى الحُــضّــار
قــد سلا كلُّ من أحبَّ بــحُــبّي
وتــلــهَّى عن جــاره بــجِــواري
وانــتــهتْ دولــةُ الــشــبــابِ كــأنْ لم
تَكُ كــانت، لم تُــبقِ من تَــذْكــار
وفــراقُ الأحــبــابِ إنْ صــدق الحُــبْ
ـبُ ســبــيلٌ لمــنــزل الانــتــحــار

فــزتَ يــا قــيــصــرٌ ولــكنْ بمــاذا
لا بــدارٍ نــعــمْتَ أو ديّــار

ومما قاله في حالة اشتداد المرض عليه:

يــا جــســداً قــد ذاب حــتى امّــحى

إلاّ قـلـيلاً عـالـقـاً بـالـشـقـاءْ
أعـانكَ الـلـهُ بـصـبـرٍ عـلـى
مـا سـتـعـانـي من قـلـيل الـبـقـاءْ

رحم الله الشاعر وليّ الدين يكن، فلقد عاش مظلوماً بالحرمان، ومات مظلوماً بالنسيان، وأتمنى لكم أيها المستمعون عمراً طويلاً وهناء دائماً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ونخرج من هذا الباب إلى غيره، إلى شعر فيه ظرف ولطف ونادرة.

قال أحدهم يهنئ عروسين مؤرخاً:

وحُـلاهـا مـن حُـلاهُ
وحُـلاه مـن حُـلاهـا
قـلـتُ لـلـزوجـين أرِّخْ
طـنـجـره ولـقـيتْ غَـطـاهـا

ولّما رأى هذا الشاعر انتشار ركوب البسكليت بين الناشئين من أهل بلده أضجره ذلك فقال يذمهم ويذم الزمان:

إن الـزمـانَ تَـحـوّلا
والجـيـلُ فـيـه تَـبـدَّلا
أفـلا يُـريّـح نـفـسَهُ
إلاّ ركـوبُ الـبَـسْـكـلا

و(البسكلا) منحوتة من (بسكليت) كما هو ظاهر.

واجتمع شعراء ثلاثة عند شاطئ البحر بجوار الفنار فأقبل عليهم أحد المفاقيع ممن اعتادوا أن يجعلوه موضوع تسليتهم، فهدتهم شياطين شعرهم إلى مدحه فتجاذبوا بينهم القصيدة الآتية:

يـــا لـــيت هـــذا الـــفـــنـــارا
فـي وجـه خِـــــلّـي أنـــــارا
ولـــيت مـــا مـــرّ شـــخصٌ
إلاّ إلـــــيـــه أشـــــارا
ولـــيت مـــا فـــارَ قِـــدْرٌ
إلاّ ورشَّ الـــبـــهـــارا

وكان الممدوح يطلب الحقوق فأشاروا إلى ذلك:

هـــو الحـــقـــوقيُّ حـــقّـــاً
بـــــين المحـــــاكـمِ دارا
لـه بـــهـــا وقـــفـــاتٌ
تُـــكـــسّـــر الأحـــجـــارا
تَـــمـــيّـعَ الـــعـــقلُ مـــنـهُ
حـــتـى اســـتـــحـــال بُـــخـــارا
وعـــقـلُ خِـــلّـي هـــزارٌ
غـــنَّى قـــلـــيلاً وطـــارا

فكان جنابه يهز رأسه طرباً وإعجاباً وتنفرج شفتاه عن ابتسامة عريضة بلهاء واستزادهم من هذا المديح فقالوا:

عـــيـــونُ خِـــلّـي دشـــيشٌ
يـــا هـل تـــرى أم دبـــارا
مـــاذا أرى فـي يـــديـهِ
أصـــابـــعـــاً أم خـــيـــارا
إذا جـــرتْ فـــوق عُـــودٍ
تُـــقـــطّـع الأوتـــارا

ولما قالوا:

وصـــــار يـــــركب تـــــكـــــسي
وكـــــان قـــــبلاً حـــــمـــــارا

أدرك بذكائه الخارق أن البيت يحتمل المدح والذم فقيل له: إن هذا الباب من الشعر يقال له: بلاغة الحذف والاكتفاء، وإكراماً لخاطره نشرت القصيدة في إحدى الجرائد بكاملها مع شرح للبيت هذا جاء فيه أن الأستاذ الممدوح لا يوافق على هذا البيت فالرجاء إلى القراء أن يعتبروه محذوفاً، وأُثبت البيت في القصيدة ونُشر على أنه محذوف، وتتميماً للفائدة نُذكّر أن بين الشعراء الأقدمين فحولاً معروفين بجدّ القول لم يخل شعرهم من هذا الهزل، نذكر منهم: بشاراً وأبا نواس ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد ورزيناً الشاعر وأبا دلامة وعماراً زاكناز، وفي كتب الأدب شعر كثير من هذا النوع منها «البيان والتبيين» للجاحظ، ومنها «العقد الفريد» و«الأغاني». وفي «الدرة اليتيمة» شاعر لم يعرف عنه أنه نظم اسمه الواساني، وفي كتاب «فوات الوفيات» شاعر لم يعرف عنه أنه نظم في غير السخيف من الشعر سمَّى نفسه صريع الدلاء، وله في هذا الكتاب قصيدة يعارض بها المقصورة الدريدية جاء فيها:

من طـــبخ الـــديكَ ولم يـــذبـــحْهُ
طـــار من الـــقـــدر إلى حـــيث يـــشـــاءْ.

هذا ما اتسع له الوقت في هذه المختارات وليعذرنا المستمعون على إضاعة وقتهم في الاستماع إلى هذر القول فما قصدنا غير التفكه وشر البلية ما يضحك.

✱✱✱✱

مناظرة بين شاعر وناثر

أيهما أبعد أثراً : الشعر أم النثر ؟

الشاعر: طال بنا الحديث أمسِ يا صديقي الناثر في أمر الشعر والنثر وأيهما أبعد أثراً في المجتمع، وها أنا نزولاً عند رغبتك نستأنف المناظرة أمام الميكروفون على مسمع من جمهور مستمعي الراديو، فيقدم كل منا حجته ويأتي ببرهانه تاركين للمستمعين أمر التحكيم عسى أن تأتينا أجوبتهم بالآية الكريمة في قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون» صدق الله العظيم... وليس لي إلا أن أذكرك بالقصة المشهورة عمن تلا قوله تعالى: «ويل للمصلين» وسكت عن بقية الآية: «الذين هم عن صلاتهم ساهون»، وأنا أنزهك أيها الصديق عن الإتيان بهذه الآية حجة تستند إليها دون أن تتمم الآية حين استثنى الله تعالى قوماً من الشعراء بقوله: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون»، فالآية كما تعلم قد نزلت في أولئك الشعراء الذين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بهجائهم، والاستثناء فيها فيمن انتصروا للنبي ووقفوا ألسنتهم ونتائج قرائحهم على الذود عنه ومظاهرته، ولولا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد عرف ما للشعر من بعيد الأثر في الجماعات، وما للشعراء من سلطان على العواطف لما أبه لهم ولا جعل لقصيدهم وزناً.

الناثر: لقد أشار النبي الكريم إلى الشعراء باستعمال تلك الأداة فاستعملوها في أمر دنيوي وترفَّع هو نفسه عن استعمالها.

ولكن لنبدأ حيث يجب الابتداء ولنعرّف الشعر فنرى الفرق بينه وبين النثر، لنعرّف موضع الجدل، أليس القول الموزون المقفى، وكفاه منقصة أن مراعاة

الوزن قد تقتضي حذفاً أو زيادة تخرج بالمعنى عن موضعه كما تقتضي القافية استعمال كلمة لا لسبب سوى أنها تصلح للقافية، وماذا ترى في هذين البيتين:

تـعـيّـنتُ مُـعـشّـراً وإني شـاطـر
وتـرانـي أزكى من جـمـيع رفـاقي
ومـا أخـطـأ المـتـصـرّف في تـعـيـيـني
وأنـا اسـمـي جـمـيل الـقـرفـاقي

الشاعر: مهلاً مهلاً ليس هذا من الشعر ولا أحسبه إلا من البحر الأطلانتيكي أو من بعض المستنقعات، وليس الشعر كلاماً موزوناً مقفى فحسب، ولو كان الأمر كذلك لكان نثركم كلاماً لا تعريف له مطلقاً ، ونظل معاشر الشعراء متميزين عنكم بشيئين اثنين على الأقل هما: الوزن، والقافية، ولكل جماله الموسيقي ووقعه في النفس. هناك يا صاحبي تخير الألفاظ ولو كنت تمارس صناعة الشعر لعلمت أن لفظة واحدة في البيت تجعل الفكرة صورة ناطقة وكياناً حياً، خذ قول شوقي مثلاً في مطلع قصيدته عن زحلة:

شـيّـعتُ أحلامي بـقـلـب بـاكِ
ولمـمتُ من طُـرُق المِلاح شِـبـاكي

فلعلك ترى معي أن لفظة «لمت» هي واسطة هذا العقد وأنها لا يقوم مقامها أية لفظة غيرها، ولو لمت كل ما أتى به الناثرون من كلمات في معناها، وأن الشاعر حين ينظم البيت ويعزّ عليه وجود الكلمة المختارة ليشعر أنها تراوغه وتماطله وتدانيه وتباعده حتى إذا هبطت في مكانها الذي اختاره لها تنفّس الصعداء ومشى في قصيدته مضاعف النشاط. الشعر إذن هو الجمال مقتنصاً الألفاظ.

الناثر: مهلاً يا أخي فليس تخيّر الالفاظ من اختصاص الشعر وحده، وإليك أمثلة من رائع النثر، قل لي بالله أية كلمة فيها يمكنك استبدالها بأخرى، وأي وضع يمكنك رصفها فيه أجمل وأكمل من وضعها الحاضر في قول ابن المقفع:

«من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه. فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرفه، ولن ينال محاسن غيره»، أو قول

الفتح بن خاقان:

«محلك في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعيانك في أحناء الضلوع بادٍ وإن شحط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تتمتع من لقائك بظفر اللحظ».

الشاعر: أنا أسلِّم معك جدلاً بأننا نتفق في اختيار الألفاظ ومراعاة التناسق، ولكن هذا قائم في الشعر بطبيعته وجزء من كيانه، وهو مكتسب في النثر اكتساباً ليدنيه من مرتبة الشعر الذي هو أرقى مراتب الأدب، والمختص بالحفاوة في كل مكان وزمان، بقي عليك أن تراعي الموسيقى التي يشيع أثرها في النفس عند تلاوة القصيدة أو الموشح، هذه الموسيقى الناشئة عن الأوزان وإنه عندكم يشال شيلاً، وإننا نتقيد بأصول وإنكم تتركونه هَمَلاً كالسوام. ثم مالكم يا صديقي تمدون أيديكم إلى ما هو من اختصاصنا، أعني القافية، ما بالكم خلقتم لأنفسكم شيئاً سميتموه السجع، وذهبتم كلفين بجعل آخر الفقرتين من قافية واحدة، ثم حَدِّثني عن الغناء هذا الفن الذي لم تستغنِ عنه أمة من الأمم، هل كان الغناء في يوم من الأيام نثراً؟ وقل لي كيف يكون موقفك من مغنّ يرفع عقيرته مغنياً مقالة افتتاحية في إحدى الجرائد، ألا تصفعه ناشدتك الله.

الناثر: لست أتردد في الاعتراف بأن ما في الشعر وما في النثر المسجوع من موسيقى وقافية يسهلان الحفظ ويساعدان في الخلود ولكنهما لا يخرجان عن كونهما تصنعاً وتكلفاً. ألم تر إلى بعض الشعراء حين يأنفون من هذا التكلّف يعمدون إلى قصائدهم فيرسلونها خالية من القافية مقلدين بذلك النثر.

الشاعر: لا إخالك يا صديقي مسجلاً علينا شيئاً حاوله المرحوم الزهاوي محاولة كانت فاشلة من أولها وردّها الشعر أنفة منها وترفعاً عنها وضناً بشاعرية الزهاوي السامية، هذا ما كان من أمر الشعراء الذين حاولوا الانطلاق من القافية، وأما كتاب السجع فهم طبقة معدودة عندكم وهم قوم أحبوا أن يكونوا شعراء وتطلعوا إلى سماء الشعر، فلما وجدوه صعباً وطويلاً سُلّمه قالوا: لنعد إلى النثر، فلما

عادوا إليه إذا بهم قد فسدت ملكتهم الأدبية فخسروا الأولى والآخرة وتعزّوا بقصة الغراب مقلّد الطاووس.

الناثر: ولكن ألا توافق معي على أن سجع الساجعين لم يخلد منه إلا القليل، وأن ذاك القليل خُلّد لا لأنه سجع بل بالرغم من ذلك ، فأين المقامات كلها من صفحة من كليلة ودمنة. وعلى ذكر هذا الكنز النفيس أذكّرك أن القصة طالت أم قصرت تجد لها في النثر مرعى خصيباً بينما الشعر محروم منها.

وإليك هذه القصة التي تظهر فيها شهامة صلاح الدين:

كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منها الرجال ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان وعرضوه عليه ، ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا: إنه رحيم القلب، وقد أذنّا لك بالخروج فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك. فخرجت إلى السلطان فلقيته وهو راكب وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه، فرقّ لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق فارتّده وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه. ولم يزل واقفاً حتى أُحضر الطفل وسُلّم إليها، فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون، فأرضعته ساعة ثم أمر لها فحُملت على فرس وأُلحقت بعسكرهم مع طفلها.

الشاعر: القصة من اختصاص النثر لا أنكر ذلك عليك وإن كان الشعر العربي غير خال من عناصرها. وليس للشعر أن يفصّل ويبحث في الدقائق، وما من قصة طويلة إلا وأنت قادر على إجمالها بصحيفة أو اثنتين حين تحذف ذيولها وحواشيها، فما لي وما لطاولة في غرفة يصفها الكاتب في خمس صفحات من قصته، ولو أراد الشاعر أن يصفها لاكتفى بكناية أو تشبيه أو استعارة وترك لخيالك أن يذهب حيث يشاء في أمرها، فهو أبداً يخاطب منك الحس ولا يسيء الظن بإدراكك وقوة تصورك.

الناثر: والنثر ممثلاً في بعض الآيات والأحاديث والحكم والأمثال والتوقيعات والرسائل قد يوجز إلى حدّ يحار الإنسان عنده كيف يمكن لذلك اللفظ القليل أن يحوي كل ما فيه من المعنى.

انظر بالله كم من المعنى تنطوي عليه الآية الكريمة: «ولكم في القصاص حياة».

أو رسالة النبي إلى هرقل التي جاء فيها:

«سلام على من اتبع الهدى. اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

أو توصية عبدالحميد بشخص حين يقول:

«حق موصل كتابي عليك كحقه علي إذ جعلك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدّق أمله».

أو في التوقيعات:

حين وقّع هارون الرشيد في قصه لأحد البرامكة: «أنبتتهُ الطاعة وحصدته المعصية».

ووقع جعفر في رجل شكاه بعض عماله: «لقد كثر شاكوك وقلّ شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

أو في الأمثال:

جَوّعْ كلبك يتبعك
ربَّ أكلةٍ تمنع أكلات
قد ضلّ من كانت العميان تهديه

والحكم:

من سلك الجَدَد أمِن العثار
المرء كثير بأخيه
شرُّ الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً

الشاعر: هل أفهم منك أن النثر محاولة شعرية يعمد فيها الكاتب إلى الكمال عن طريق الإيجاز وحسن الوصف، وهو كذلك فيما أرى، بدليل أن القطع التي اخترتها لا تخلو من فقرات موزونة على بحور معلومة من بحور الشعر، وأراكم تزينون نثركم بشواهد من الشعر فتبثونها في أثنائه، وما رأيت شاعراً يستشهد في قصيدة له بقطعة منثورة. وعلى الجملة فإن النثر – كما أستفيد من قولك – يعظم شأنه ويقوى أثره في النفس كلما دنا من الشعر واتصل به وتزلّف إليه.

الناثر: أرانا لا نفرق بين الشعر والنثر فلنعد إلى التعريف. لقد قلتُ إن الشعر كلام موزون مقفى فلم ترض، ثم قلت إنه حسن اختيار للفظ وحسن إيقاع في الموسيقى، فأريتك أن في النثر من ذلك آيات باهرات، فهل لديك على التعريف من مزيد؟.

الشاعر: كنت أريد لك أن تمارس صناعة الشعر لتعرف من أسراره وخفاياه ما نعرفه معاشر الشعراء كما نمارس نحن صناعتكم ونجد من تمام أداتنا أن نطلع على أسرارها ونعمل على إتقانها. فهنالك الخيال، وإليك ما يوقعه المتنبي في قلبك من الروعة حين يحملك على جناح شاعريته ويطوف بك فوق حصن الحدث، وهو يقول لك:

أتَوْكَ يجرّون الحديدَ كأنما
جَرَوْا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ
خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفُهُ
وفي أذن الجوزاءِ منه زمازم
تَجمَّعَ فيه كلُّ لَسْنٍ وأمّةٍ
فما يفهم الحدَّاثَ إلا التراجم
تَقطّعَ ما لا يقطع الدرعَ والقنا
وفرّ من الفرسان من لا يصادم
وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنك في جفن الردى وَهْو نائم
تَمرّ بك الأبطالُ كلمَى هزيمةً
ووجهُكَ وضَّاحٌ وثغرك باسم

الناثر: نعم إن في هذا لخيالا قوياً، ولكن أصغِ الى ما في هذا من الخيال واحكم لنفسك:

«الغد بحر خضمّ زافر يعبّ عبابه وتصطخب أمواجه فما يدرك إن كان يحمل في جوفه الدرّ والجوهر أو الموت الأحمر.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر وتتسقطه العقول وتستدرجه الأنظار فلا يبوح بسرّ من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال.

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة واحدة من صفحات وجهك الجميل؟ أو لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستطيع أن نستشفّ خيالك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك، وذابت أكبادنا وجداً عليك».

وقول جبران:

«أنتم الأقواس وأولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن أقواسكم، فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية فيلويكم لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى».

الشاعر: وهناك العاطفة فما عساك أن تقول في داليّة ابن الرومي التي يرثي بها أوسط بنيه؟:

توخّى حِمامُ الموتِ أوسطَ صبيتي
فلله كيف اختار واسطةَ العِقْدِ
طواه الردى عني فأضحى مزارُهُ
بعيداً على قُرْبٍ قريباً على بعد
لقد قَلَّ بين المهد واللحد لبْثُهُ
فلم يُنْسَ عهدُ المهدِ إذ ضُمَّ في اللحدِ

وأولادنا مثلُ الجوارحِ أيّها
فقدناه كان الفاجعَ البيّنَ الفقْدِ

لـــكلِّ مـــكـــانٌ لا يـــســـدّ اخـــتـلالَهُ
مـــكـــانُ أخـــيه من جـــزوعٍ ولا جَـــلْـــد
هل الـعـينُ بـعـد الـسـمعِ تـكـفي مـكـانَهُ
أم السمعُ بعد العينِ يـهدي كما تـهدي؟
أريـحـانـةَ الـعـيـنـين والأنفِ والحشـا
ألا لـيت شـعـري هل تـغـيـرتَ عن عـهـدي؟
كـأنيَ مـا اسـتـمـتـعتُ مـنكِ بـضـمَّـةٍ
ولا شـــمَّـــةٍ في مـــلـــعبٍ لكَ أو مـــهـــد
أرى أخـــويكِ الـــبـــاقـــيـــين كلاهـــمـــا
يـكـونـان لـلأحـزان أورى من الـزنـد
إذا لـــعـــبـــا في مـــلـــعبٍ لكَ لـــذّعـــا
فـؤادي بمـثل الـنـار عن غـيـر مـا قـصـد

أما الغزل وعاطفة الحب فلا أحيلك على قصيدة بعينها بل على قبيلة برمتها، أحيلك على بني عذرة ومجانينهم ومهاويسهم، هؤلاء الذين ملأوا الدنيا طرباً ولم يتركوا خلجة من خلجات العين إلا وأحسوا بها تتغلغل في أعماق الفؤاد، ولا خفقة من خفقات القلوب إلا وأثبتتها شاعريتهم وصورتها، وأنت إذ تخرج من قراءة هذا الشعر الصافي تكون نفسك في آفاق من المثل العليا والشعور بالسمو مما لا عهد لك به، ولا سبيل إلى تدوينه في نثرك، ولا إلى الإعراب عنه بلسان.

وخذ لعاطفة الحماسة والفخر من شئت من الشعراء، فهذا قطريّ بن الفجاءة يخاطب نفسه بما يلقي بها إلى الموت:

أقـــول لـــهـــا وقـــد طـــارت شَـــعـــاعـــاً
من الأبـــطـــال ويـــحكِ لن تـــراعي
فـــإنك لـــو ســـألتِ بـــقـــاءَ يـــومٍ
عـــلى الأجل الـــذي لكِ لم تـــطـــاعي
فـصـبـراً في مـجـال المـوت صـبـراً

فـمـا نـيلُ الخـلـودِ بمـسـتـطـاع

وهذا المتنبي حين يقول مفتخراً:

واقـفـاً تحت أخـمـصَيْ قـدْر نـفـسي
واقـفـاً تحت أخـمـصيَّ الأنـامُ

الناثـر: الشاعر رجل غير عادي، من محب أودى بعقله الحب فهام على وجهه لا يدري أين يذهب، إلى مغرور يرى «واقفاً تحت أخمصيه الأنام»، إلى مبالغ تملّكه الخيال فلم يتبين ما يفصله عن الواقع فراح يهرف بما لا يعرف، إلى واعظ وهو بالوعظ جدير.

هذا من تعدونه يا معشر الشعراء شاعراً كبيراً، ولكن بينكم من هانت عليه القافية لأن ذاكرته تعي حروف الهجاء كاملة، ولكن شقّ عليه الوزن فراح يقيس أبياته بالمسطرة، وإليكم مثلاً قول القائل:

نـرجـوكَ يـا عـبـدَالـوحـيـدِ المجـيـد الـودودِ
أن تـرسل لـنـا سـكّـةَ الحـديـدِ بـالـبـريـدِ

وإليك أمثلة من النثر تفيض فيها العاطفة:

«أيها الناس أين المفرّ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا أنفسكم عليه، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله».

وإليك خطاب مدحت باشا قبل إعدامه:

«أيها الحكام أستحلفكم بالله تعالى وباسم الحقيقة، ألم يأتكم خطاب علوي

عندما وقعتم على قرار إعدام المظلومين؟ ألم يتحرك وجدانكم وترتجف أيديكم حينما حركتم الأقلام؟ أنتم في تلك الدقيقة وكلاء رب الموت. تفكروا جيداً هل شعرتم بإضطراب في أفئدتكم؟ ألم يخطر لكم ما يحلّ بأهلكم وعيالكم من عواقب الظلم؟ ألم تعلموا أن حكمكم بالإعدام سيكون نقطة سوداء في بطون التواريخ يُتلى جيلاً بعد جيل؟.

فإذن أيها الجلاد لا تخف. أمامك من لا يهمه الموت في سبيل الدفاع عن الوطن، اقترب مني وضع حبل الإعدام في عنقي، وأنتم أيها الحكام سوف ترون عاقبة ظلمكم، وسنلتقي بكم إن شاء الله أمام محكمة العدل الكبرى، اقترب أيها الجلاد اقترب ونفذ ما أمرت به، فالحكم لله».

ثم اسمع إلى زياد يخطب: «إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدّة في غير عنف، وإني أقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم قناتكم».

ولكن اعذرني حين لا تبلغ أمثلتي حد الطغيان في العاطفة لأن النثر أداة العقل أولاً والعقل لا يسمح له بالشطط.

والنثر فوق ذلك يجمع بين الخيال والعاطفة كما في هذا:

«نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع.

نفسي طافحة بخمرها فهل من ظامئ يسكب ويشرب ويرتوي.

ألا ليتني كنت شجرة لا تزهر ولا تثمر، فألمُ الخصب أمرّ من ألم العقم، وأوجاع ميسورٍ لا يُؤخذ منه لأكثر هولاً من قنوط فقير لا يُرزق.

ليتني كنت بئراً جافة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من أن أكون ينبوع ماء حيّ والظامئون يجتازونني ولا يستقون. ليتني كنت قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من أن أكون قيثارة فضية الأوتار في منزل ربه مبتور

الأصابع وأهله طرشان».

ولكن تذكَّر يا صديقي أن الخيال مع جماله ضد الواقع، وأن العاطفة مع نبلها تناقض العقل أحياناً، وأن الانسان عاقلاً خير منه مندفعاً، وما أعظمه حين يبشر بعقيدة فيقنع، وحين يقبس علماً فينير السبيل، وحين ينقل خبراً فيوضّح أمراً غامضاً. وإليك هذا المثل على الإقناع:

«قُضِي على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ويذلّ بعد الامتناع، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية. ولم نر منهم من صدق في دعواه بل كلّهم تابع في ذلك قصده وهواه».

وها إن ابن مالك حاول نقل العلم في ألفيته كما كتب غيره الحساب والطب شعراً، فيا له من شعر، ما أبدعه!

الشاعر: أراد ابن مالك أن يسهّل حفظها على الناس، فلم يجد وسيلة خيراً من النظم، وكذلك كانوا يفعلون في العلوم الرياضية والطبيّة، وهذا ليس شعراً وإنما هو نظم لأنه لا يشتمل على ميّزات الشعر التي قدمناها، وهل يعقل أن تضع أبيات ابن مالك عن المتعدي واللازم والصحيح والمعتل والنواصب والجوازم في مرتبة قول أبي نواس مثلاً في الكأس والراح حين يقول:

تدور علينا الراحُ في عسجديّةٍ
حَبَتْها بأنواع التصاويرِ فارسُ
قرارتُها كسرى وفي جنباتها
مَهاً تَدَّريها بالقِسيّ الفوارس
فللراح مازَرّت عليه جيوبُهمْ
وللماء ما دارت عليه القلانس

الناثر: الكأس قبلتكم، والكأس بدنكم، وبنت العنب وأمثالها مُثُلكم العليا يا معشر الشعراء، ولكن للناثرين مُثُلاً عليا أخرى ، منها قوله تعالى:

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»

وقول النبي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك».

وقول الحكيم: «ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك فقل لقلبك ما أقساك».

الشاعر: وعندنا المتنبي والمعري وشوقي قد حفظوا للإنسانية مثلها العليا بأوجز لفظ وأجمل قالب وأبعده أثراً في النفوس. أمّا القول على القرآن والحديث فلسنا في مجال التناظر فيهما، لأنهما فوق الشعر والنثر معاً، ولأنهما من كلام الوحي والنبوة لا الشعراء والكتاب.

الناثر : والآن إذا كنت لا تزال مصراً على تفضيل الشعر، فهات نتناظر كل منا بما ينتصر له، أنا بنثري وأنت بشعرك ليتم لك الفوز.

الشاعر: نترك ذلك للمستمعين، وأدعو لك الله ألا يكون بينهم شاعر تستنفره الحمية للشعر فيسلط لسانه على الناثرين بهجاء يدور مع الدهور ويخلد على العصور.

****

حديث أخلاقي

قراءة مختارة من كتاب أدب الدنيا والدين

لأبي الحسن البصري

ص ١٤٢ – ١٥٢

قال إبراهيم بن العباس: «مثل الإخوان كالنار، قلبها متاع وكثيرها بوار» وقال ابن الرومي:

عدوُّكَ من صديقكَ مستفادٌ
فلا تستكثرنّ من الصحابِ
فإنَّ الداءَ أكثر ما تراهُ
يكون من الطعام أو الشراب
ودعْ عنكَ الكثيرَ فكم كثيرٍ
يُعاف، وكم قليلٍ مستطاب
فما اللججُ الملاح بمُرْوِياتٍ
وتلقى الريَّ في النُّطَف العِذاب

والإخوان أربعة أقسام:

منهم من يعين ويستعين، ومنهم من لا يعين ولا يستعين، ومنهم من يستعين ولا يعين، ومنهم من يعين ولا يستعين.

فأما المعين المستعين فمنصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له. فهو كالمُقْرِض عند الحاجة ويستر عند استغناء، وهو مشكور في معونته، معذور في استعانته، فهذا أعدل الإخوان.

وأما من لا يعين ولا يستعين فمتروك قد مُنِعَ خيره، وقُمِع شره. وهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها، فلا هو مزعوم ولا هو مشكور، وإن كان باللوم أجدر.

وأما من يستعين ولا يُعين فهو لئيم كَلّ، ومهين مستذّل، فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن، فليس لمثله في الإخاء خطر، ولا في الوداد نصيب، وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم، ومن سمّهم لا من غذائهم.

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع، مشكور الصنيع. قد حاز فضيلتَيْ الابتداء والاكتفاء، فلا يرى ثقيلاً في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة. فهذا أشرف الإخوان نفساً، وأكرمهم طبعاً، فينبغي لمن أوجد له الزمان مثله (وهو الدرّ اليتيم) أن يثني عليه خنصره، ويعضّ عليه بناجذه، ويكون به أشد ضنّاً منه بنفائس أمواله وسنيّ ذخائره.

وإذا صفت للإنسان أخلاق من جرّبه، وتمهدت لديه أحوال من خبره، وأقدم على اصطفائه أخاً، وعلى اتخاذه خِدْناً، لزمته حينئذ حقوقه، ووجبت عليه حرماته. قال عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرقّ. وقال بعض الحكماء: من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه. فأول حقوقه اعتقاد مودته، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير محرّم، ثم نُصحه في السرّ والعلانية، ثم تخفيف الأثقال عنه، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة. فإن مراقبته في الظاهر نفاق، وتركه في الشدة لؤم. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: خير أصحابك المعين لك على دهرك، وشرهم من سعى لك بسوق يومه، وقيل: يا رسول الله! أيّ الاصحاب خير؟ قال: الذي إذا ذكرت أعانك وواساك، وخير منه من إذا نسيت ذكّرك. وكان أبو هريرة يقول: اللهم إني أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي إلا بموافقة شهواتي، وممن ساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي! وقال بعض البلغاء: عقود الغادر محلولة، وعهوده مدخولة، وما وَدَّك من أهمل وِدّك، ولا أحبك من أبغض حبك. وقال الشاعر:

وكلُّ أخٍ عند الهوينى مُلاطفٌ
ولكنما الإخوانُ عند الشدائدِ

وقال آخر:

شـــرُّ الأخِلاَّء من كـــانت مـــودّتُهُ
مع الـزمـان إذا مـا خـاف أو رَغِـبـا
إذا وتـــرْتَ امـــرئٍ فـــاحـــذر عـــداوتَه
من يـزرعِ الـشـوكَ لا يـحـصـدْ به عـنـبـا
إن الـــعـــدو وإن أبـــدى مـــســـالمـــةً
إذا رأى مـنك يـومـاً فـرصـةً وثـبـا

وينبغي للإنسان أن يتوقى الإفراط في محبته، فإن الإفراط داعٍ إلى التقصير. قال عليه الصلاة والسلام: أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغضْ بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما. وقال عمر رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

وكن مـعـدنـاً لـلـخـيـر واصـفـحْ عن الأذى
فـــإنكَ راءٍ مـــا عـــمـــلتَ وســـامعُ
وأحـبـبْ إذا أحـبـبتَ حـبّـاً مُـقـاربـاً
فـــإنك لا تـــدري مـــتى أنتَ نـــازع
وأبـغِض إذا أبـغـضتَ غـيـرَ مُـبـاينٍ
فـــإنك لا تـــدري مـــتى أنتَ راجع

وإنما يلزم من حق الإخاء بذل المجهود في النصح، والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق، فليس في ذلك إفراط وإن تناهى، ولا مجاوزة حدّ وإن أكثر وأوفى، فتستوي حالتاهما في المغيب والمشهد، ولا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى.

قال بعض الشعراء:

عـلـيَّ لإخـوانـي رقـيبٌ من الـصـفـا
تـبـيـد الـلـيـالي وَهْـو لـيس يـبـيـدُ

يـذكّـرنـيـهم في مـغـيـبي ومـشـهـدي
فـسـيّـان مـنـهم غـائبٌ وشـهـيـد
وإني لاسـتـحـيـي أخي أنْ أبـرّه
قـريـبـاً وأن أجـفـوه وَهْـو بـعـيـد

وليقصد المرء في زيارة صديق وغشيانه غير مُقلل ولا مكثر، فإن تقليل الزيارة داعية الهجران، وكثرتها سبب الملال. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة زُرْ غبّاً ، تزدد حباً».

وبحسب ذلك فليكن في عتابه، فإن كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق. قال بشار:

إذا كـنتَ في كل الأمـورِ مـعـاتـبـاً
صـديـقَكَ لم تـلقَ الـذي لا تُـعـاتـبهْ
وإن أنتَ لم تـشـرب مِـراراً عـلى الـقـذى
ظَـمِـئْتَ وأيُّ الـنـاس تـصـفـو مـشـاربه
فـعشْ واحـداً أو صِلْ أخـاك فـإنه
مـقـارفُ ذنبٍ مـرةً ومُـجـانـبه

ثم من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم، وتستر زلتهم. لأن من رام بريئاً من الهفوات سليماً من الزلات رام أمراً معوزاً ، واقترح وصفاً معجزاً، وقد قالت الحكماء: أي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو، ومن حاول صديقاً يأمن زلته كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بعداً. وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحبّ إليك؟ قال: من غفر زللي، وقطع عللي، وبلّغني أملي.

وحُكي عن بنت عبدالله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف، وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قوماً ألأم من إخوانك. قال: مه، ولم ذلك؟ قالت: أراهم إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك. قال: «هذا والله من كرمهم، يأتوننا في حال القوة عليهم، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم»! فانظر كيف تأوّل بكرمه هذا

التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسناً وظاهر غدرهم وفاء، وهذا محض الكرم ولباب الفضل. قال الشاعر:

إذا مـــا بـــدتْ من صـــاحبٍ لك زلّـــةٌ
فـــكن أنتَ مـــحـــتـــالاً لـــزلـــته عـــذرا
أُحبّ الـفـتى يـنـفي الـفـواحشَ سـمـعُهُ
كـــأنّ به عن كلّ فـــاحـــشـــةٍ وقـــرا
ســلـــيمُ دواعي الـصـــدر لا بـــاسطٌ أذىً
ولا مـــانعٌ خـــيـــراً ولا قـــائلٌ هُـــجْـــرا

والداعي إلى هذا التأويل شيئان: التغافل الحادث عن الفطنة، والتآلف الصادر عن الوفاء. قال أبو تمام:

لـــيس الـــغـــبـيُّ بـــســيّـــدٍ في قـــومهِ
لـــكنّ ســـيّـــدَ قـــومه المـــتـــغـــابي

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

****

ذكرى المولد النبويّ

السلام عليك يا رسول الله، يا خاتم أنبيائه الأكرمين. دينك الحقّ الذي أظهره الله على الدين كله، وكتابك كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

السلام عليك يا رسول الله، لقد اصطفاك ربّك بشيراً ونذيراً للعالمين، فأظهر لمولدك المعجزات، وخصّ طفولتك بالخير والبركة، وأحاط شبابك بالصدق والأمانة والعفاف، ثم كانت سنّ النبوّة: سن الأربعين، وإذا بوحي الله يهبط عليك في الغار ويهيب بك: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربّك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم.».

وحسبك النبوّة مقاماً، وكفى بالرسالة شرفاً.

السلام عليك يا رسول الله، أشرف الأمم أمتك، وأعز قبيلة فيها قبيلتك، وأطهر أب في قريش: عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم.

السلام عليك يا رسول الله عنّا، وعن ملايين يدينون بدينك، ويرفعون رؤوسهم بين الأمم باسمك، وما زالوا ولن يزالوا يعتزّون بمخلّد مجدهم الأسمى، محمد صلى الله عليه وسلّم، وها هم اليوم – ولو كره أعداؤهم – يحتفلون بذكرى مولدك الأقدس، ذكرى ذلك اليوم الذي انبثق فجره ليكون نوراً خالداً على الدهور، وبشيراً بوحدةٍ عربيةٍ، يظلل لواؤها ما بين الأندلس والصين. ولئن أضاعوا هذا الملك الكبير الذي وطّدت أركانه على اسم الله، ولئن دالت تلك الدولة التي من رجالها الخلفاء العظام، والقوّاد الغطاريف، فإن في كلمتَيْ: «الله أكبر» تردّدهما الأجيال، وتهتف بهما العصور، لخير داعٍ إلى تسوية الصفوف، ويقظة الهمم، وإن في القرآن الأزلي لدستور العرب والعربية، لمن ينشدون الحرية والمجد والسلطان.

أيها الشاب المسلم، المحتفل اليوم بمولد النبي الكريم، أيكون آخر عهدك بالقرآن يوماً زيّنت فيه كرسي ختمك؟ وابتهج فيه بك أهلك؟ ارجع إلى قرآنك ، يرحمك الله ، كأني برسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينظر إليك عاتباً لما رأى من إهمالك كتابه المبين، ثم أخذ ذلك الكتاب بيديه، وهو يحدّثك بحديثه الشريف مشيراً إليه: فيقول، أصدق من قال: «القرآن له ظاهر وباطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، والتفكّر فيه حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور».

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرتْ
ظهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمِ
لها معانٍ كموج البحر في مددٍ
وفوق جوهره في الحسن والقيم
قرَّتْ بها عينُ قاريها فقلتُ له
لقد ظفرتَ بحبل اللهِ فاعْتصم

أيها الشاب المسلم، إن وراء هذا الابتهاج بمولد النبي الأعظم، صلى الله عليه وسلّم، لغاية هي أسمى من هذه المظاهر، وروحاً أعلى شأناً من زخرف المهرجان، هنالك علم بعد جهل، وعدل بعد ظلم، وحضارة بعد بداوة، ونظام بعد فوضى. كل ذلك يذكّرك به مولد النبي العربي، ويذكرك بما كان عليه العرب قبله، وما وصلوا إليه بعده، فهل عاهدت نفسك على تدبر قرآنه الكريم، واتّباع صراطه المستقيم؟ على ذلك عاهدْ نفسك، في هذا اليوم، تنل ما تصبو اليه، وتنعم في ظل الكرامة، ويتحقق أملك المنشود.

والسلام

****

علي بن الجهم
وطائفه مختارة من شعره

ترجم صاحب الأغاني لعليّ بن الجهم حياته ببيتين من الشعر تغنّى بهما أبو عيسى ابن الخليفة المتوكل وهما:

هي النفسُ ما حمَّلْتَها تَتحمَّلُ
وللدهر أيامٌ تجور وتَعْدِلُ
وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ
وأفضلُ أخلاقِ الرجال التجمّل

وعلي بن الجهم من معاصري المتوكل من الخلفاء والبحتري من الشعراء، «وكان شاعراً فصيحاً مطبوعاً ، وخُصّ بالمتوكل حتى صار من جلسائه ، ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه والذكر لهم بالقبيح عنده، وإذا خلا به عرّفه أنهم يعيبونه ويثلبونه وينتقصونه فيكشف المتوكل عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه بعد أن حبسه مدة».

وكان – قبحه الله – يهجو آل أبي طالب رضي الله عنهم ، ويذمّ الشيعة ويغري بهم حتى لقد تناوله البحتري بهجاء أليم مقذع، ونفى نسب قريش عنه بقوله:

إذا ما حصّلتْ عُليا قريشٍ
فلا في العِير أنتَ ولا النفيرِ
علامَ هجوتَ مجتهداً عليّاً
بما لفّقتَ من كذبٍ وزُور

على أن لهذا الشاعر – على سوء خلقه – قصيدتين أشهر من اسمه ، وما من متأدب إلا ويعرفهما أو يحفظهما، الأولى قصيدته التي مطلعها:

عيونُ المها بين الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

والثانية وهي أجمل مما اعتذر به سجين عن سجنه، وأولها:

قالوا حُبسْتَ فقلتُ ليس بضائري
حبْسي وأيُّ مُهنّدٍ لا يُغمَدِ

وقد وقعتُ له على طائفة حسنة من شعره في كتاب الأغاني، منها قصيدة كتب بها إلى أخيه أول ما حُبس جاء فيها:

توكّلنا على ربّ السماءِ
وسلَّمْنا لأسباب القضاءِ
ووطَّنّا على غِيَر الليالي
نفوساً سامحتْ بعد الإباء
وأفنيةُ الملوك مُحجَّباتٌ
وبابُ اللهِ مبذولُ الفِناء
هي الأيامُ تَكْلمنا وتأسو
وتأتي بالسعادة والشقاء
وجرّبنا وجرّبَ أوّلونا
فلا شيءٌ أعزُّ من الوفاء

وإليك قوله بعد نفيه إلى خراسان، وكان وصل إليها ليلاً فحبسه طاهر بن عبدالله، ثم أُخرج فنُصب مصلوباً مجرداً من ثيابه فلما أُنزل قال يفتخر بنفسه ويذكر صبره على المكاره:

نصبوا بحمد اللهِ ملءَ قلوبهم
شرفاً وملءَ صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعةً بنكوله
وازدادتِ الأعداءُ عنه نُكولا
هل كان إلا الليثَ فارقَ غِيلَهُ
فرأيتَه في مَحملٍ محمولا
ما عابه أن بُزّ عنه ثيابُهُ
فالسيفُ أهولُ ما يُرى مسلولا

إن يُـبْـتَـذلْ فـالـبـدرُ لا يُـزري به
ان كـان لـيـلـةَ تـمّه مـبـذولا
أو يـسـلـبـوه المـالَ يُـحـزِن فَـقْـدُهُ
ضـيـفـاً ألمّ وطـارقـاً ونـزيلا
أو يـحـبـسـوه فـلـيس يُـحـبَس سائرٌ
من شـعـره يـدعُ الـعـزيـزَ ذلـيلا
إن المـصـائبَ ، مـا تـعـدّتْ ديـنَهُ ،
نِـعَمٌ وإن صَـعُـبتْ عـلـيه قـلـيلا
واللـهُ لـيس بـغـافلٍ عن أمـرهِ
وكـفى بـربّكَ نـاصـراً ووكـيلا
ولَـتَـعْـلَـمُنَّ إذا الـقـلـوب تـكـشَّـفتْ
عـنـهـا الأكـنّـةُ مَن أضلُّ سـبـيلا

وللشاعر في غير هذا الباب آيات في الشعر تتجلى فيها البداهة والطبع ، من ذلك قوله متغزلاً:

تـنـكّـر حـالَ عـلّـتيَ الـطـبـيبُ
وقـال أرى بـجـسـمكَ مـا يـريبُ
جـسـستُ الـنـبضَ فـيكَ فـدلّ جَـسّي
عـلـى ألمٍ له خـبـرٌ عـجـيب
فـمـا هـذا الـذي بكَ هـاتِ قل لي
فـكـان جـوابَه مـني الـنـحـيب
وقـلـتُ: أيـا طـبـيبُ الـهـجـرُ دائي
وقـلـبي يـا طـبـيبُ هـو الـكـئـيب
فـحـرَّكَ رأسَه عَـجَـبـاً لـقـولي
وقـلـتُ: بـلى إذا رضي الحـبـيب
فـقـال: هـو الـشـفـاءُ فلا تُـقـصّـرْ
فـقـلـتُ: أجلْ ولـكنْ لا يـجـيب
ألا هل مُـسْـعِـدٌ يـبـكي لـشـجـوي
فـإني هـائمٌ فـردٌ كـئـيب

وقال في مغنّ بارد حضر معه مجلساً، والمعنى لطيف خفيف الروح، قال: كنت في مجلس فقال مغني القوم: كم بيننا وبين الشتاء؟:

فــذرعتُ الــبــســاطَ مــنّي إلــيهِ
قــلتُ هــذا المــقــدارُ قــبل الــغــنــاءِ
فــإذا مــا عــزمتَ أن تَــتــغــنّى
آذنَ الحَــرُّ كــلُّه بــانــقــضــاء

وأتلهف إذ لم يكن في متناول يدي الآن قصيدة علي بن الجهم التي تبتدئ بهذا المطلع الرائع:

عــيــونُ المــهــا بــين الــرصــافــةِ والجــســرِ
جــلــبنَ الــهــوى من حــيث أدري ولا أدري

ولكن لا يفوتني أن أروي لكم طريفة تتعلق بهذا البيت، وهي تدل على ما شئت من ذكاء وبديهة وسعة اطلاع. قيل إن رجلاً كان يقطع جسر دجلة إلى الرصافة فمرّت به فتاة رائعة الحسن بارعة الجمال فنظر إليها وقال: رحم الله علي بن الجهم، فأجابته على الفور: ورحم الله أبا العلاء المعري، وذهب كلّ في طريقه، وقد فهم أحدهما ما أراد الآخر.

أما هو فقد أراد بقوله : «رحم الله علي بن الجهم» أن مرور هذه الجميلة على الجسر إلى الرصافة قد ذكّره بقول الشاعر:

عــيــونُ المــهــا بــين الــرصــافــةِ والجــســرِ
جــلــبنَ الــهــوى من حــيث أدري ولا أدري.

وأما جوابها بالترحم على المعري، فقد أرادت به قول هذا الشاعر:

فــيــا دارَهــا بــالخــيف أمــا مَــزارُهــا
قــــريبٌ ولــــكنْ دون ذلك أهــــوالُ

وفيه من الدلالة على عزة الفتاة وصعوبة التوصل إليها ما فيه، وهذه الحكاية على حسن وضعها لا تخلو في شطرها الثاني على الأقل من مبالغة.

ونختم ما اخترناه لهذا الشاعر بأبياته المشهورة وهي:

قالوا حُبِستَ فقلتُ ليس بضائري
حبسي وأيُّ مُهنَّدٍ لا يُغمَدُ
أَوَما رأيَت الليثَ يألف غِيلَهُ
كِبْراً وأوباشُ السباع تَرَدَّد
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ
عن ناظريكَ لما أضاء الفرقد
والبدرُ يدركه السِّرارُ فتنجلي
أيامُه وكأنه مُتجدِّد
والحبسُ ما لم تغشَه لدنيّةٍ
شنعاءَ نعم المنزلُ المتودّد
بيتٌ يُجدِّد للكريم كرامةً
ويُزار فيه ولا يزور ويُحْمَد

توفي علي بن الجهم سنة تسع وأربعين ومئتين هجرية، الموافقة سنة ثلاث وستين وثمانمئة ميلادية.

ويروي صاحب الأغاني من آخر شعر له قوله:

وا رحمتا للغريب بالبلد النا
زِحِ ماذا بنفسه صنعا
فارقَ أحبابَه فما انتفعوا
بالعيش من بعده ولا انتفعا

ولمن شاء أن يطّلع على حياة هذا الشاعر مفصلة، فليرجع إلى الجزء التاسع من كتاب الاغاني المشهور – طبعة ساسي المغربي – وأنا كفيل له بأن سيجد شاعراً مجيداً يستحق العناية والدرس.

ملاحظة: الحديث بدون تاريخ.

****

فوز وعباس

في شعر العباس بن الأحنف شاعر بلاط الرشيد ميزتان اثنتان: إحداهما تخصصه بالغزل دون سائر أغراض الشعر مع انقطاعه إلى حبّ واحد، والثانية فضله على الشعراء بانتقال معانيه إلى الغرب بأوزان أهل الأندلس بواسطة الشعراء المتنقلين المعروفين بالتروبادورز، ونشوء الشعر الغربي المعروف بالوجداني بتأثير هذا الانتقال.

أما الميزة الأولى فغرابتها في أنّ ابن الاحنف لم يتأثر بمحيطه كما تأثر به غيره من الشعراء، وبحسبنا أن نرجع إلى دواوينهم فنقرأ لأبي نواس مثلا غزلاً في جنان وعنان ومكنون ورحمة وعريب وغيرهن مما يتجاوز العشر عدّاً. وفي لقب الشاعر مسلم بن الوليد (بصريع الغواني) برهان على ما نذهب إليه، وكذلك في لقب الحسين بن الضحاك (بالخليع). فبينا أترابه ينتقلون بقلوبهم من حب إلى حبّ وتتنزه أعينهم بين وجه حسناء وقامة هيفاء، كان ابن الأحنف ثابت القلب على حب واحد، قرير العين بحسناء واحدة. وبينا إخوانه يتسابقون على أبواب الخلفاء والأمراء يمتدحونهم ويستدرون جودهم كان ابن الأحنف مكرماً منعماً عند الخليفة الرشيد غير مطالب بمديح ولا متقدم برثاء، وإنما اكتفى الخليفة بأن يقرّب منه شاعراً غزلاً فصيحاً يقول الشعر لنفسه لا لغيره، ويحيا لهواه لا لهوى سواه.

وبينا زملاؤه لا يحجمون عن الدخول في غمار الحزبية القحطانية والعدنانية يضرمون وقودها بألْسِنَة الهجاء والتعصب، ويشقون بها نفياً وتعذيباً وحرماناً كان ابن الأحنف في معزل عن ذلك كله، له من حبه شاغل يشغله عن كل ما حوله.

أما الميّزة الثانية، أعني انتقال معانيه إلى الغرب، فنظرية حديثة صاحبها المستشرق الألماني الدكتور يوسف هل. وقد كنا أذعنا له حديثاً من هذا الميكروفون أثبت الدكتور فيه أن الأدب الغربي قد تأثر بالشعر العربي ، وأسند الفخر والفضل في ذلك لشاعرنا

العباس بن الأحنف، وكفى بذلك للشاعر ميّزة وفخراً وفضلاً على أقرانه الشعراء.وقد تخصص الدكتور يوسف هلّ بدراسة العباس بن الأحنف، وكتب عنه رسالة بعنوان: (العباس بن الأحنف في ظلّ الرشيد)، نشرتها مجلة «إسلامكا» الألمانية، ألمّ فيها الدكتور بحياة الشاعر وتطوراتها إلماماً لا مطمع بعده لكاتب.

هذا هو الشاعر الفريد العباس بن الأحنف، أما حبيبته فهي «فوز» جارية محمد بن منصور أحد أشراف بغداد.

وليس لدينا مرجع للتعرف بفوز حبيبة العباس غير ديوانه الذي وقف شعره عليها وخصّه بها، قال:

يا من يسائل عن فوزٍ وصورتها
إن كنتَ لم ترها فانظرْ إلى القمرِ
كأنما كان في الفردوس مسكنُها
فجاءتِ الناسُ بالآيات والعِبَر

ويرى الشاعر أن كل حسن تقع العين عليه إنما هو من فضل حسنها، فيقول:

إن نفسي مطيعةٌ لهواها
لهجَتْ بالهوى فقد أشقاها
أتّقي سخطَها فراراً من الهَجْـ
ـرِ، وإنْ أذنبتْ طلبتُ رضاها
بنتُ خِدْرٍ أخشى العيونَ عليها
أكملَ اللهُ خلْقَها إذ براها
أين لا أينَ مثلُها إنّما يَحْـ
ـسُنُ من فضل حسنها مَنْ سِواها

ويصفها الشاعر وهي طفلة صغيرة ، فيقول:

وكانت جارةً للحُـ
ـرِ في الفردوس أحقابا

فـــأمـــستْ وَهْي فـي الـــدنـــيـــا
ومـــــا تـــــألف أتـــــرابـــــا
لـــهـــا لُـــعَبٌ مـــصـــفَّـــفـــةٌ
تُـــلـــقّـــبـــهنَّ ألـــقـــابـــا..
تـــنـــادي كـــلّـــمـــا رِيـــعتْ
مـن الـــعـــزّة «يـــا بـــابـــا»

وما رأيت أسخف من ناقد معاصر لابن الأحنف يتهمه من أجل هذه الأبيات بالسخف، ويجد فيها ليناً ورخاوة.. فكأن الناقد (غفر الله له) كان ينتظر من الشاعر أن يقول عن حبيبته وهي في سنّ الطفولة أنها تفصّل الثياب، وتغشى مجالس العلم والأدب، وتنظم الشعر الرائع، وتقوم بتدبير المنزل. فضلاً عن تفقّهها في الحب والمغازلة وخبرتها بتأثير الهجران والنفور على قلب عاشقها. أترى الناقد أراد هذا أم كبر عنده أن يتدنى الشاعر إلى ذكر اللّعب التي كانت فوز تلهو بها وتطلق على كل لعبة من لعبها لقباً، وكيف رضي الشاعر لنفسه أن يأتي بكلمة (بابا) على لسان فوز، كلّ ذلك يراه الناقد سخيفاً ولكنني أراه في حدود البلاغة، وهل البلاغة إلا الإتيان بالقول بحسب ما يقتضيه المقام، فالشاعر يتكلم عن فوز الطفلة وهذه هي أعمال الطفولة وكلماتها، ولكلّ مقام مقال.

واستمعوا الآن إلى العاطفة الصادقة تتكلم، وإلى الوفاء الأكيد ينطق، وإلى النفس الشاعرة تنظر بين جوانبها فتُخرج روائع الصور، وتنفثها على لسانه سحراً حلالاً وحكمةً بالغة وعلماً بأحوال النفس الإنسانية واسعاً، قال العباس بن الأحنف:

يـــا فـــوزُ يـــا مـــنـــيـــةَ عـــبّـــاسِ
قـــلـــبـــي يُـــفـــدِّي قـــلـــبَكِ الـــقـــاسي
أســـأتُ إذ أحـــســـنتُ ظـــنّي بـــكم
والحـــزمُ ســـوءُ الـــظنِّ بـــالـــنـــاس
يـــقـــلـــقـــنـي الـــشـــوقُ فـــآتـــيـــكمُ
والـــقـــلبُ ممـــلـــوءٌ من الـــيـــاس
أعـــطـــيتُ قـــلـــبـي فـــيـــكُمُ ســـؤلَهُ
فـــعـــاد أعـــطـــانـي عـــلى راسي

وقال:

إن الـــهـــوى لـــو كـــان يَـــنْـ
ـــفـــذُ فـــيه حـــكـــمي أو قـــضـــائي
لـــطـــلـــبـــتُه وجـــمـــعـــتُهُ
مـن كـل أرضٍ أو ســـــــمـــــــاءِ
فـــقـــسَـــمْـــتُه بـــيـــني وبَـــيْ
ـنَ حـــبـــيبِ قـــلـــبي بـــالـــسَّـــواء
فـــنـــعـــيش مـــا عـــشـــنـــا عـــلى
مـــحضِ المـــودّة والـــصـــفـــاء
حـــتى إذا مـــتـــنـــا جَـــمـــيـ
ـــعـــاً، والأمـــورُ إلى فـــنـــاء
مـــات الـــهـــوى من بـــعـــدنـــا
أو عـــاش في أهل الـــوفـــاء

وهذه أمنية خالصة ولكنها بعيدة المنال مع الأسف، وقال:

رأتْ رغـــبـــةً مـــني فـــأبـــدتْ زهـــادةً
ألا ربَّ مـــحـــرومٍ من الـــنـــاس راغبِ
أريـــد لأدعـــو غـــيـــرَهـــا فـــيـــجـــرُّني
لـساني إلـيـهـا بـاسـمـهـا كـالمـغـالب
ولـــو كـان قـلـبي يـســتـطـيع تـكـلّـماً
لحـــدَّثـــكم عـــني بـــكل الـــعـــجـــائب
لـــقـــد قـــال داعي الحبِّ «هل من مُـجـاوبٍ»
فـــأقـــبـــلتُ أســـعى قـــبل كلّ مُـــجـــاوِب

فتأملوا في هذه السهولة التي في نظمه، وفي هذه الطريقة المبتكرة التي يتناول بها موضوع الحب ، والتنويع الكثير الذي يودعه كل مقطوعة من مقطوعاته، مع العلم بأن ميدان الغزل أضيق من ميادين المديح والرثاء ، والعثرة فيه دانية، ولكن ابن الأحنف شاعر زاخر الشاعرية، مُطّلع واسع الاطلاع، عالم بفنون الكلام وأساليبه.

وإليكم هذه المغالطة الرشيقة يدفع بها عن نفسه تهمة الهوى، وعن حبيبته فوز شبهة الناس وريبتهم في علاقاتها به، قال:

أبكي على الشرق إن كانت منازلُها
مما يلي الغربَ خوفَ القيلِ والقالِ
أقول في الخدّ خالٌ حين أنعتُها
خوفَ الوشاة وما بالخدّ من خالِ

ومن لطيف ما يروى عنه أنه ضرب غلاماً له وحلف أن يبيعه، وكان في خلق الشاعر شدّة، فمضى الغلام إلى فوز فاستشفع بها عليه، فكتبت إليه فيه وطلبت إليه العدول عن فكرته، فقال:

يا من أتانا بالشفاعاتِ
من عند مَنْ فيها لجاجاتي
إن كنتُ مولاكَ فإن التي
قد شُفِّعتْ فيكَ لمولاتي
إرسالُها فيكَ إلينا لنا
كرامةٌ فوق الكرامات

ورضي عنه ووصله وأعتقه. جزى الله الشعراء عن طيب قلوبهم وحسن موداتهم خيراً.

ومن نوادرها معه أنها وعدته بلقاء في مساء اليوم التالي، فلما أتى الوعد هيأ نفسه وتطيب ولبس أفخر ثيابه، فلما بلغ المنزل وجد من يخبره أنها رحلت في الصباح الباكر، فقال في ذلك في قصيدة:

همو كتموني سِرّهم يومَ أزمعوا
وقالوا اتّعدنا للرواح وبكّروا

وقد أنشد المأمون هذا البيت فقال: «لقد سخروا بأبي الفضل»! وأبو الفضل كنية العباس بن الأحنف.

واجتمع أبو نواس مع العباس بن أحنف في مجلس فقام العباس لشغل ، فسئل أبونواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: هو أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد العباس، وانتهز الحضور غيبة من أبي نواس فسألوا العباس عن رأيه فيه وفي شعره فقال: إنه لأقر للعين من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس، ورجع أبو نواس ودارت كؤوس الشراب فتناول أبو نواس قدحاً وقال:

أبـــا الـــفـــضلِ اشـــربَنْ ذا الـــكـــأْ
سِ ، إنـي شـــــــاربٌ كـــــــاسـي

فقال العباس:

نَـــعَمْ يـــا أوحـــدَ الـــنـــاسِ
عـــلى الـــعـــيـــنـــين والـــراسِ

فقال أبو نواس:

فـــقـــد حفّ لـــنـــا الـــمَـــجْـــلِـ
ـسُ، بـــالـــنَّـــســـرين والآس

فقال العباس:

وإخـــــوانٍ غـــــطـــــاريفٍ
ســـــراةٍ ســـــادةِ الـــــنـــــاس

فقال أبو نواس:

وخَـــوْدٍ لـــذّةِ المـــســـمـــو
عِ مـــثل الـــغُـــصُنِ الـــكـــاسي

فقال العباس:

وقـــد ألـــبـــســـهـــا الـــرحـــمَـ
ـنُ من أحـــــسن إلـــــبـــــاس

فقال أبو نواس:

وقـــد زيْـــنَتْ بـــإكـــلـــيلٍ
يـــواقـــيتٍ عـــلى الـــراس

واستمرت المساجلة فكان ما نُسي منها أكثر مما حُفظ.

وقد مات الشاعر بتأثير هواه فوز، كما مات من قبله مثله من شعراء الحبّ العفيف الصادق. مرض وهو في الحجاز بعيد عن بغداد مقر حبيبته، ولما أضناه السقام وتحامل عليه اليأس والفراق فاضت روحه وهو ينشد:

يا بعيدَ الدار عن سكِنْه
مُفْرَداً يبكي على شجنِهْ
كلّما جدّ الفراقُ بهِ
دبَّتِ الأسقامُ في بدنه
ولقد زاد الفؤادُ شَجاً
طائرٌ يبكي على فَنَنه
شفَّه ما شفّني فبكى
كلُّنا يبكي على وطنه

رحم الله العباس بن الأحنف، وغفر الله لحبيبته فوز ما جنته بدلالها وجمالها عليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إبراهيم طوقان

١٩٣٧/١/٢٧

****

الطبيب الشاعر

تذاع مساء الأربعاء في ١٧ آب سنة ١٩٣٨

الساعة ٧,٠٠

عرفته طالباً في الجامعة، موكلاً بالوجوه الحسان والقدود الهيفاء، يتبعها فيتصيّد من ذلك الجمال لشاعريته عذوبة ورونقاً وسحراً، ويقتنص منه معاني يوقّعها أنغاماً مجنحة رقيقة الألفاظ، شجيّة القوافي. وكان له من حفظه للشعر الرصين ومعرفته بأساليب الفصاحة، ذخيرة تجعل في شعره ما يذكرك بعشاق بني عذرة المعاميد وشعرائها المدلّهين.

ولم تكن الجامعة لتبخل على شاعرنا بما يوحي إليه بالقصيدة، وبالمقطع إثر المقطع، فموقعها فوق الهضبة المشرفة على البحر، ومنظر الجبال المطلة على رحابها مكللة بالثلوج، وغدوّ الفتيات ورواحهن كأسراب الظباء، كل ذلك كان غذاء لشاعريته فاطّرد نموها وازدهرت، وآتت جناها شعراً عالياً.

وكان بحكم تخصصه بالطب على صلة بمستشفيات الجامعة، ولا مندوحة له عن التعرف إلى الأوانس الممرضات والتحدث إليهن في الشؤون الطبية بادئ الامر.. ثم في شؤون شتى.. ثم الاستقرار عند إحداهن بسلام وكلام.. فموعد فلقاء..

ولن أنسى هيئته وقد دخل علي يوماً في غرفتي وهو يضرب كفاً بكف ويتأوه ندامة وحسرة.. وأسأله عما دهاه فيقول: «أتعرف من هو أغبى مني؟ فارقتها يوم أمس على موعد لقاء في الساعة الحادية عشرة، ولم أدر ما أصابنا.. إذ لم يفطن أحدنا إلى تعيين مكان اللقاء...!» قلت: دعني من قولك هذا وهات ما عندك، فأنشدني:

ألا بأبي غانيةً: بها للهوى ما بيَهْ
نظرتُ لها نظرةَ الذليلِ الى الطاغيَهْ
وقلتُ ألا هل أراكِ في الليلة التاليه
فقالت إلى ملتقاكَ في الساعة الحاديه

وطارت بنا نشوةٌ: فلم نذكرِ الناحيه
فيا من رآها إليَّ رائحةً غاديه
وحُمْتُ على دارها: وحامت على داريه
فلا أنا حاظٍ بها: ولا هيَ بي حاظيه
فعادت بأحزانها
وعدتُ بأحزانيه

ومرت تلك السنة وقد صرفه هواه هذا خلالها عن التنقل من زهرة إلى زهرة... وتقلبت شاعريته في أكناف ذلك الحب الواحد فلم تكد تتعداه، وكان من أجمل ما ناجاها به شكوى حمّلها إليها مع طائر وأنطقه بها ، قال:

ولي جارٌ على فَنَنٍ رطيبٍ
أعلِّمه أفانينَ النواحِ
تَحمَّلَ من عليل الحبِّ شكوى
وطار إليكِ مُنطلَقَ الجناح
رآكِ فظلّ في الإصباح يشدو
صباحَ النورِ يا نورَ الصباح
تعالَيْ فالحبيبُ يذوب شوقاً
وليس على ازديارك من جُناح
تعالي فالصبا حُلُمٌ ويمضي
وتَعْروري الرياضُ من الأقاحي
تعالي عَلّليه بكوثريٍّ؟
يجول على ثنايا كِ الوِضاح
فلو أبصرتِه والقلبُ دامٍ
يميل عليه من ألم الجراح
إذن لأقلتِ عثرتَه وأضحى
يعلّمني أفانينَ الصُّداح

وقوله على لسان الحبيبة من قصيدة:

واعـــدتُهُ حـــتى إذا وافـــيـــتُهُ
ألـفـيـتُه وافى عـلى اسـتـعـجـالِ
ان الـهـوى سـبّـاقُ مـيـعـادِ الـهـوى
مـــرتـــاده بمـــطـــيّـــة الآمـــال
أهـوى عـليَّ يـضـمّـني ويـنـال من
شـــفـــتيَّ أوّلَ عـــهـــده بـــوصـــال
فـضـمـمـتُه نـشـوى ومـلـتُ ومـال بي
وذُهِـلتُ عن دنـيـايَ في اسـتـرسـالي
يـا حـبّـذا ولعُ الحـبـيـبِ وحـبّـذا
ولـــــعي وفـــــرطُ دلالـه ودلالـي
حـتى إذا مـا الـفـجـرُ صـاح نـذيـرُهُ :
كُـفّـا فـسـربـالُ الـدجـنّـةِ بـال
قـلتُ الـوداع فـراح يُـقـعـدني الـهـوى
سَـلِمَ الـهـوى ويـجـدّ في إمـهـالي
ورجـعتُ أدراجي وبي لـو تـنـثـني
فـتـئـوب زهـرٌ آذنت بـزوال
هـيـهـات مـا تمَّ الـوصـالُ لـعـاشقٍ
يـا لـيت حـظي مـنه طـيفُ خـيـال

ثم، مر به دور أيأسه منها، وعقبه فراق لم يكن بعده لقاء، فقال ولم يكن قوله إلا تعلّة الآيس الملهوف:

أصـــبـــحتُ، لا حـــبـــيبَ لي
وغِـــــــــيضَ وِرْدُ الأمـلِ
أنـــام ملءُ جـــفـــنيَ الـــرْ
رُ قـــادُ والـــبـــالُ خَـــلِي
شـــفـــيتُ بـــالـــيـــأس حَـــزا
زاتِ الـــهـــوى المـــشـــتـــعل

ورحتُ لا تـــــــــعـــــــــمل فـي
قـــلـــبي ســـــهـــــامُ المـــــقل
لا درَّ دَرّي إن صَـــــــــــبَـــــــــوْ
تُ لـــــــلـــــــــزمـــــــــان الأول
الـــــيـــــأسُ، إن الـــــيـــــأسَ أَحْـ
ـــــيـــــاني، وأفـــــنى عِـــلَـــلي

وضرب الدهر ضرباته، فإذا الشاعر يوشك أن يتخرّج طبيباً، وقد كان تفوقه على أقرانه موضع عجبي. فما صرفه الشعر عن الطب، ولم يقوَ الطب على العبث بشاعريته. وكان ينظم أحياناً الأراجيز يودعها الاصطلاحات الطبية، وأسماء الأمراض والعقاقير فيقبل زملاؤه على نسخها لما في حفظها منظومة من السهولة. وكان يحيطها بألوان من الفكاهة فيجعل من جفائها طلاوة تسرع بها إلى الرسوخ في الذاكرة، وبينما تراه يناقش رفاق صفّه في بعض نظريات الجراحة، أو يناظرهم في أعراض بعض الأدواء إذا بالمذاكرة تنقلب إلى مطارحة شعرية، وإذا به خبير بطبّ البيان خبرته بطب الأبدان، ويكون قبل لحظة في غرفة التشريح مقبلاً على عمله بين القروح والجراح بلذة ونهم للمعرفة، فإذا سمع بيت شعر رديء آذاه، ورأيته يسدّ منه أنفه، فاعجبْ لهذا التناقض...!

وكان همه بعد يأسه من ذلك الهوى أن يخرج من الجامعة بشهادة وعروس أو بخطبة على الأقل. ولم يطل به المدى حتى كان يفاوض في أمر شريكة حياته.. وأوشك أن يتم ذلك بعد أن رأى الفتاة ووقعت من نفسه موقع الإلهام، وكانت على جمالها الممتاز قصيرة القامة ، فحبّب إلينا شعره فيها قصر القامة، فذلك حيث يقول:

أهـوى الـقـصـيـرةَ في الحـسـان فـإنـهـا
أبـــداً تـــظل صـــغـــيـــرةَ الجـــثـــمـــانِ
تُـرْبي عـلـى الـسـتـين وَهْـي كـأنـهـا
سِتٌّ خـــلَتْ من عـــمـــرهـــا وثَـــمـــان
فـإذا ضـمـمتَ جـمـعـتَـهـا في ضـمّـةٍ
وإذا لـــثـــمتَ فـــخـــدُّهـــا لكَ دان

ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي سفينته.. إذ أغلى أهلها المهر، وأصرّ هو ألاّ ينفق في سبيل عقد الزواج درهماً، وحجته أنه طبيب رأس ماله سماعة وورقة وقلم، وأن تقاليد الزواج اليوم لم يفرضها قرآن، ولا جاء بها حديث، فهي مفسدة للحياة الزوجية واتّباعها يؤدي إلى الفقر ويطرح بالزوج تحت عبء ثقيل من الهموم والديون. وأصر أهلها على العمل بالتقاليد، وأصر هو على فلسفته في الزواج. قال لي: لقد كانت جلسة حامية الوطيس خرجت منها غير آسف، وضربت بقلبي وحبي عرض الحائط.

ولم يمض شهر وبعض شهر على هذا الحادث حتى كان الشاعر يقضي الشهور الأخيرة من حياته المدرسية مستعداً لامتحان الشهادة، وكنت تراه يروح ويغدو وإلى جانبه ابنة خاله، فقد تزوّج منها وأتى بها معه إلى الجامعة، فتم له الفوز بالشهادة والعروس.

عاد الشاعر إلى بلده طبيباً، وكانت أخبار تفوقه قد سبقته ممهدة سبيل النجاح والتوفيق وتضمن له الإقبال الدائم، وخاض معترك الحياة فلم يجده من هذه الناحية عسيراً، ورُزق المال والبنين فتمت له بكليهما زينة الحياة الدنيا.

ولكن قلبه كان في معزل عن ذلك كله، لقد كان خفوقه مستمداً من عالم هواه المخذول، هوى الخطيبة ذات المهر الغالي، وأتيح له بها لقاء هيأه مرضها فكان سبباً لتجديد العهود، لكنّ ذلك لم يطل فخطبت وزوّجت.

فاستمع اليه يروي الحادثة في قصيدة أو ملحمة قصصيّة – على حد تعبيره – هي قصة قلب في شعر عذب، أترك لك الحكم لها أو عليها:

قالوا حبيبتُكَ التي عاهدتَها
نكثتْ عهودَكَ بعد طول ثباتِ
يا لهفَ روحي آذنت بأفولها
أسفاً عليها وانطوتْ مأساتي
يا طِيبَ ذيَّاك الأسى لو دام لي
وبقيتُ في البلوى وفي الحسرات
لَهْفي على تلك البشاشة والرضا
لهفي على أنفاسها العطرات
كنّا بقلبينا معاً أنَّى غدتْ
وغدوتُ رغمَ تَفرُّقٍ وشتات

خـفِـيتْ رسـائـلـهـا وكنّ كـواكـبـاً
يـطـلـعنَ أو يـغـربنَ في مِـيـقـات
في كل إصـبـاحٍ كـتـابٌ ذاهبٌ
وبـكلّ إمـسـاءٍ كـتـابٌ آت
نـتـبـادل الـشـكـوى ونـعـتب كـلـمـا
عـدنـا إلى ذكـرى الـزمـان الـعـاتي
أيـامَ في حـلـبٍ وقـفتُ مـهـدّداً
صـلبَ الـعـزيمـةِ مـا تـلـين قـنـاتي
المـهـرُ حبٌّ صـادق وتلاؤمٌ
لا أشـتـري بـالمـال قـلـبَ فـتـاة
المـبـدأُ الأسـمى اعـتـصـمتُ بـحـبـلهِ
وسُـدىً يـحـاول أهـلُـهـا مـرضـاتي
فـأتَـوْا بـقـاضي الحبِّ يـحـكم بـيـنـنـا
وشـكَـوْا وجـئتُ بـحـجّـتي وشَـكـاتي
وطـلـبتُ سـنَّـةَ أحـمـدٍ حَـكَـمـاً لـنـا
وأبَـوْا بـغـيـر تـوارثِ الـعـادات
فـتـمـرَّدوا وتـمـردتْ نـفـسي فـلم
تـأبهْ لمـا يـطـغى من الـنَّـزَعـات
فـهـجـرتُـهـا هـجْـرَ الـبـغـيضِ وفاتـني
أني سـأبـكـي الحبَّ بـعـد فـوات
حـطّـمتُ آمـالي وقـلتُ سـخـيـفـةٌ
وبـرئتُ من نَـصَـبي ومن عِلاّتي
ووجـدتُ في مـغـنى الـنـطـاسةِ مـتـعـةً
فـدأبتُ في مـسـتـقـبـلي وحـيـاتي
الـعـامَ إثـر الـعـامِ أعـمل جـاهـداً
حـتى دنتْ بـقـطـوفـهـا ثَـمَـراتي

فـأبـحـثُـهـا حـسـنـاءَ تمّ له الـصـبـا
تـزهـو بـحـلـو شـمـائلٍ وصـفـات
أمَّـلتُ فـيـهـا عـصـمـةً عن حبّ مَنْ
أصبـحتُ أحـسـبـهـا صـمـيمَ عُـداتي
وحـسِـبْـتُـنـي أسـلـو وأنـعم خـالـيـاً
وجـهـلتُ طـيبَ أواصـري وصِلاتي
أصـبـحتُ إن ذُكِـرَ الـهـوى عـاد الأسى
كـأشـدِّه وتحـدّرتْ عَـبَـراتي
في كل يـومٍ لـوعـةٌ، يـا لـيـتـني
لمـا تـخـاصـمـنـا مـلـكتُ أنَـاتي
فـرضـيتُ بـالـغـبن الـصـريحِ ولـيـتـني
أهـفـو وأغـضي الـطـرفَ عن هـفـواتي
لـكنّ نـفـسي لـلـحـقـيـقـة تـنـبـري
سـعـيـاً ولـو سـارت عـلى الجَـمَـرات

ولـقـيـتُـهـا يـومـاً فـصـادف طَـرْفُـهـا
طـرفي، وبـادل لحْـظُـهـا لَـحَـظـاتي
فـكـأنمـا احـتـشـدتْ مـشـاهـدُ حـبّـنـا
وبـدتْ كـلـمح الـعـينِ في مـرآة
حـالٌ من الـذكـرى وحبّ صـامتٌ
تـسـمـو مـعـانـيه عن الـكـلـمـات
في الـنـظـرة الـعـجـلى على رغم الجَـفـا
مـهَّـدتُ أعـوامـاً من الـعـقـبـات
آمـنـتُ أنَّ نـدامـةً تجـتـاحـهـا
آثـارُهـا ارتـسـمتْ عـلى الـقَـسَـمـات
وانـتـابـهـا داءٌ فـرَوَّع أهـلَـهـا
تـلك الـكـآبـةُ مـوضعَ الـبـسـمـات

وتــأوهتْ ألمــاً فــقــالــوا لــيــتــنــا
نـــأتي بمن يُـــشـــفي من الآهـــات
ذكـروا لـهـا اسـمي فـازدهتْ فـتـردّدوا
هـيـــهـــات لا نـــرضى به هـيـــهـــات
لـكـــنـــهم ثـابـــوا إليَّ فـعـــدْتُـــهـــا
عـــــجلانَ والإبـلالُ في خُـــــطُـــــواتي
بـعـد الـسـهـادِ المـرِّ مـالت لـلـكـرى
بـــلـــذيـــذ أحلامٍ وطِـــيب سِـــنـــات
أنـــا بـــرْؤُهـــا ممـــا تـــكـــابـــد وهْي لي
بـــــرؤٌ من الأشـــــواق والحُـــــرُقـــات
عـادت مـحـبّـتُـنـا كـسـالف عـهـدهـا
وثَّـــابـــةً وتـــوثَّـــقتْ عُـــرواتي
وخـشـيتُ أن يـردَ الـظـمـاءُ فـتـرتـوي
غـلاّتُـــــــــهـم وأظـلّ فـي غـلاّتـي
حـلـفتْ لـتـمـنعَ كلَّ صـادٍ وِرْدَهـا
وتُـعـلّـنـي من ريـقـهـا بـفُـرات
أنـا في ريـاض الخـلـد أرتع لاهـيـاً
غِـرَّ الأمـاني والـهـوى مـلـهـاتي
إن عـاتـبَـتْـني فـالـعـتـابُ لـبـانـةٌ
فـي إثـــره فـــوضى من الـــقُـــبُلات
نـتـبـادل الأنـفـاسَ وهْي لـوافحٌ
ونـعـالج الـزفـراتِ بـالـزفـرات
واعـتـادني زَهْـوٌ فـرحتُ مـعـربـداً
أخـتـال بـين حـواسـدي ووُشـاتي
هم يـبْـرمـون إلى المـكـايـد خـلـسـةً
وأنـا قـريـرُ الـعـينِ في غـفلاتي

ألـــفـــيتُ نـــفـــسي في قـــرارة هُـــوّةٍ
لا تُـــسـتـــطـــاع عـــلى الـــزمـــان نجـــاتي

يـــا جـــنّـــةً انـــشـــأتُـــهـــا لم أجْـــنِـــهـــا
لـــهـــفي عـــلى أزهـــارِكِ الـــعَـــبِـــقـــات
أبـــداً يـــحـــرِّقـــني هـــواكِ ومـــهـــجـــتي
تـــهـــفـــو إلى أفـــيـــائكِ الخَـــضِلات
يـــا بـــلـــبلاً غـــنّى وطـــار عـــلى الـــفلا
أخـــشى عـــلـــيكَ غـــوائلَ الـــفَـــلَـــوات
خـــلَّـــفتَ لي قـــفـــصي وطـــرتَ مُـــغـــرِّداً
فـــأنـــا الـــســـجـــينُ شـــجـــيَّـــةٌ رنّـــاتي
هـــيـــهـــات لن تـــلـــقى ســـوايَ مُـــتـــيَّـــمـــاً
يُـــصـــغي بـــرقَّـــته إلى الـــنـــغـــمـــات
الأهلُ إن عـــــدلـــــوا ملائكُ رحـــــمـــــةٍ
والأهلُ إن ظـــلـــمـــوا لـــفـــيفُ جُـــنـــاة

كأنني بالمستمع يود الآن لو أصرح باسم الطبيب الشاعر، ولكن لا، وأستميحه عذراً، ولندع العاشق في بلواه هائم القلب على ضفاف العاصي، يقتبس من نواعير الدهيشة أنينها وشكواها فيودعها أناشيده الخالدة، وينقل عن رياض «حماه» شذاها فتنقده شاعريته بياناً خلاباً وسحراً حلالاً ، والسلام عليكم.

إبراهيم طوقان

****

ديوان ابن الساعاتي
عُني بنشره
الأستاذ أنيس المقدسي

للجامعة الاميركية في بيروت أفضال كثيرة في نشر الثقافة عموماً، والعربية منها خصوصاً، تتجلى في نواح مختلفة من أعمالها. فهي فضلاً عما يتخرج فيها كل سنة من الأطباء والصيادلة وحملة البكلوريا في مختلف العلوم والفنون، لا تنفك تجاري تطور الحركة العلمية والأدبية بما تخرجه هيآتها الثقافية من الكتب القديمة والمخطوطات القيّمة والمؤلفات، فتحيي التراث العربي ، وتغني المكتبة العربية بما تقدمه إليها بطريق البحث والتحقيق والطبع الأنيق. ويبدو أثر هذه الحركة المباركة جليّاً في ثلاث دوائر في الجامعة تتجارى في هذا السبيل، اثنتان منهما تفرغتا للعلوم الطبية والعلوم الاجتماعية، تستمدان المساعدات المالية لأعمالهما من هبات سخية تردها من الخارج. وأما الثالثة فهي دائرة العلوم الشرقية تعتمد على قليل من المال – مع الأسف – تخصصه الجامعة لها من سنة إلى سنة. من أجل ذلك نرى أكثر ما تنشره هذه الدائرة إنما يقوم به الأساتذة في أوقات فراغهم، بينما ترى في دائرة العلوم الطبية ودائرة العلوم الاجتماعية أن قسماً من منهاج الأساتذة يُخصّص للبحث والنشر، نرى في دائرة العلوم الشرقية أن الأساتذة يقومون بالبحث والنشر مضافاً إلى منهاج التدريس الكامل.. وعلى بعد ما بين تينك الدائرتين وهذه الدائرة من مجال التفرغ للعمل والإنتاج، تجد هذه الدائرة الأخيرة بفضل نشاطها وهمتها ومحبتها لأن تخدم العلم لوجه العلم لم يقلّ خصبها وإنتاجها عن أختيها. فقد أخرجت حتى اليوم عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة فضلاً عما أخرجته بواسطة وقفية ثيودر في الجامعة من كتب تُعتمد للدراسة في الصفوف العليا، نخصّ بالذكر منها كتابَيْ «أمراء الشعر العباسي» و«تطور الأساليب النثرية»، وكلاهما للأستاذ أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي في الجامعة.

هذا وقد خرج من الدوائر المذكورة ونُشِر مباحث شتى في الطب والكيمياء والاجتماع والتاريخ والأدب، فأنت ترى أن الغاية نبيلة ترمي إلى أن يكون لأساتذة الجامعة سهم في تعميم البحث العلمي، والتنقيب عن الحقائق وخدمة العمل خدمة تتعدى نطاق الصفوف وكتب التدريس.

وإننا على اغتباطنا بما نراه من نشاط الباحثين اليوم في الجامعة وسواها وانتشار الروح الثقافية بين الطبقات المتعلمة في كافة الأقطار العربية، أقول إنه لابد من أن تمد حكومات هذه الأقطار يدها بالمساعدة فتكون أكثر حدباً على العلماء والباحثين، فإن الحكومات أقدر دائماً على التنشيط من الأفراد والجامعات، وأجدر أن تعدهم بالمساعدات المادية والمعنوية.

هذه كلمة لم نجد بداً من إيرادها قبل أن نراجع ديوان ابن الساعاتي، إحدى نتائج هذه الجهود الطيبة والحركة الثقافية المباركة.

كان الشاعر ابن الساعاتي في عصر شهد حالة لعلها أعنف ما تمخضت عنه العصور الإسلامية عن عاطفة الدين ووعي السياسة، في مزيج لم يكن من الهيِّن حلُّه إلى عناصره الرئيسية. فقد كان عصر النزاع بين الشرق والغرب، وعهد وقائع فاصلة بين أن يصبح هذا الشرق كله تحت سيطرة الغرب، وبين أن يحتفظ بشرقيته وعروبته وإسلاميته.

لقد كان عصر الدولتين: دولة نور الدين محمود الشهيد، ودولة خلفه صلاح الدين يوسف المشهور بالأيوبي. بدأ هذا الانتباه الممتزج بالدين والسياسة، وأخذ يعنف ويشتد حتى بلغ الأوج الأعلى وأسفر عن وجه النصر المبين.

وتبعاً لهذا الانتباه واشتداده ونتائجه السياسية كان الإنتاج الادبي يقوى وينشط ويكثر، وانفسح المجال لنبوغ الكتّاب والشعراء الممتازين بالجملة، فغير صاحبنا ابن الساعاتي لمع نجم ابن منير الطرابلسي وسبط ابن التعاويذي وعمارة اليمني، ومن الكتّاب: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، والإخوة الثلاثة أبناء الاثير – صاحب التاريخ

الكامل، وصاحب جامع الأصول في أحاديث الرسول، وصاحب المثل السائر – وغيرهم. ودوّن أسامة بن منقذ في هذا العصر مذكراته في كتاب الاعتبار، وسجّل ابن شداد القاضي سيرة بطله ومولاه صلاح الدين. فأنت ترى كيف يمتاز هذا العصر برجاله الكبار وآثاره القيمة.

وتعليل هذا الامتياز يتضح عند استعراض بين سقوط بيت المقدس بأيدي الإفرنج سنة ٤٨٧ هجرية إلى أن استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣، وهي فترة مئة سنة تقريباً.

كان سقوط بيت المقدس بأيدي الإفرنج بدء الانتباه، ثم تلته أحداث جددت الآمال وأحيت العزائم ودعت إلى وحدة الصفوف والجهود، وأهم هذه الأحداث فتح الرها معقل الإفرنج في الأناضول على يد عماد الدين زنكي، ثم فتح حلب وتشكيل دولة دمشق على يد ولده نور الدين محمود الشهيد، وتلا ذلك انتهاء الدولة الفاطمية ورد مصر إلى حظيرة الخلافة الإسلامية، وكان من ذلك كله أن توحدت القوى المبعثرة توحيداً امتد من أقصى العراق إلى أقصى مصر حتى لقد أوشك أن ينتظم بلاد المغرب، ومن سوريا شمالاً إلى اليمن جنوباً، وبنتيجة ذلك تحققت الغاية المنشودة من استرداد بيت المقدس، وكانت الكرّة للشرق على الغرب ودحر النفوذ الغربي، إلا في موضعين أو ثلاثة، متخذاً سبيله في البحر سرباً... في هذا الموجز مواطن لنشوة الاعتزاز بالظفر، وميدان فسيح لازدهار الأدب بشقيه – من شعر ونثر – وخروجه حياً نقياً قوياً....

وابن الساعاتي من ثمرات ذلك العهد الخصيب، وهو ربيب الفتوح والعواطف المضطرمة، ونهضة أدبية لها طابعها الممتاز وألوانها الخاصة. فإذا قدم الأستاذ المقدسي الشاعر وديوانه إلينا فهو إنما يقدم لنا صفحة ذلك العهد في ديوان شاعر يمثل أدب عصره وحياته ومجتمعه، وكفى بذلك للأستاذ المقدسي فخراً وفضلاً.

بين يدينا الجزء الأول، وهو ما طبع إلى الآن من جزأي ديوان ابن الساعاتي، وقد افتتحه الأستاذ المقدسي بقائمة المصادر التي اعتمدها في دراسة الشاعر، وكنا نود ان نرى بينها كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لشهاب الدين أبي شامة (وهو مقدسي

أيضاً). وتظهر قيمة هذا الكتاب كمصدر حين يعرض الأستاذ في دراسته لذكر من مدحهم الشاعر ومناسبات المديح. ويلاحظ أن في الروضتين أبياتاً سقطت في الديوان، ولكننا نرجو أن تكون هذه الناحية مستوفاة في الجزء الثاني.

ويلي قائمة المصادر وصف شامل للمخطوطات الأربع التي اعتمدها الأستاذ في إخراج الديوان وتحقيقه، وفي هذا الوصف تتجلى روح العلم الصحيح والجلد على البحث والتنقيب والمقابلة، ولعل هذه الناحية أشق ما يعترض أمناء العلم في طريقهم إلى تأدية أماناتهم العلمية. ثم خص الأستاذ المقدسي الشاعر وديوانه بدراسة استوفاها في نحو ثلاثين صفحة كبيرة جاء فيها على نشأته وشخصيته ومزايا شعره، وهي دراسة تكاد تكون أدبية محضة تتناول حياة الشاعر بكثير من الحيطة والحذر لقلة ما بين يدي الأستاذ الباحث من المصادر التي تعنى بخصوصيات الشاعر، ولاعتماده على استخراج صورة للشاعر من ديوانه، وهذه الطريقة لابد فيها من التأني بالحذر – على حد قول الأستاذ المقدسي – لئلا نرسم للشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليه تمام الانطباق. فإذا عرض لشعره، أخذ الأستاذ في عرضه على دواوين الشعراء الذين سبقوه فيراه شبيهاً بهم في أغراضه الشعرية «من مدح وفخر، وهجاء ورثاء، ووصف ومجون» كما أنه «على جودة طبعه لم يأت بروائع تُوقد الشعور العالي وتملأ النفس بجلال الحياة». وإنما «قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية». ويستشهد على جميع ذلك بقطع يقتطفها من هنا ومن هناك..... أقول، من الإنصاف للشاعر ألا يُحكم عليه هذا الحكم القاسي ما لم نقدم بين يدي هذا الحكم دراسة – إن لم تكن مفصلة، فمجملة – للنزاع الذي كان قائماً بين الشرق والغرب، وأي أثر ترك هذا النزاع في الناحية الأدبية، ثم نعرض قصائد الشاعر على ضوء هذه الدراسة فنحكم لها أو عليها بمقدار تمثيلها لذلك العهد قوة وضعفاً. وقد سبق للأستاذ أن اتبّع هذه الطريقة في استعراض أمراء الشعر العباسي فقدّم بين يدي دراستهم الخاصة مباحث جليلة الفوائد، صوّر فيها عصورهم وما يتعلق بها من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية، عدا الناحية الأدبية.

وإتماماً للفائدة نورد لابن الساعاتي قطعتين تصورّان شاعريته مادحاً ومتغزلاً، فمن شعره يمدح الخليفة الناصر العباسي قوله:

لقد خَلَفَ المبعوثُ خيرَ خليفةٍ
قؤولٌ لما يُرضي الإله فَعولُ
تَذلُّ له الأيامُ وهْي عزيزةٌ
وتصغر حيث الخطبُ وهْو جليل
إذا سار سدَّ الأفقَ والأفقُ واسعٌ
رماحٌ وبِيضٌ، عصبةٌ وخيول
صقورُ جيادٍ والمواضي مخالبٌ
لها ، وأسودٌ والذوابلُ غِيل
ومن كان نورُ الوحيِ فوق جبينهِ
ثَنَى كلَّ طَرْفٍ عنه وَهْو كليل
له شرفُ البيتِ العتيقِ وزمزمٍ
وما ساقه حادٍ إليه عَجول
لقد كان يومُ الفتحِ للدهر غُرّةً
ومنه شِياتٌ جمّةٌ وحُجول
كفيلٌ بردّ الحقِّ من مستعيرهِ
له اللهُ في كلّ الأمورِ كفيل
وقد يتداعى الظلمُ بعد انتشارهِ
ويعظم أمرُ الحقّ وَهْو ضئيل

ومن شعره في الغزل قوله:

حالَ في الحبِّ عهدُهُ
وسُلُوّي ووعدُهُ
إنْ قسا قلبُه عَلَيْ
يَ فقد لان قَدّه

جـــاحـــدٌ في الـــهـــوى دمي
وبـــه نَـــمَّ خَـــــــــــــــــدّه
يـــــا عـــــذولـي إن شفّ جَـــــفْ
ـــــنَـيَّ دمـــــعي وسُـــــهـــــده
لـيَ جـــــســـــمي وســـــقـــــمُه
وفـــــــــؤادي ووَجْـــــــــده
لا تـــســـلـــنـي عن الـــهـــوى
بـيَ مـــــــــا لا أحـــــــــدّه
وإذا كـــــــــان هـــــــــزلُـهُ
قـــــاتـلاً، كـــــيف جَـــــدّه
قـــد شـــكـــوتُ الـــهـــوى إلـــيْ
ـه فـــــمـــــا ســـــاغ وِرْده
كـــلّـــمـــا قـــلـتُ قـــد دنـــا
زاد بـــالـــتّـــيه بُـــعـــده
وَصْـــلُـه جـــنّـــتي ونـــا
ري، إذا شـــــــاء صَـــــــدّه
هـــــو لا شكَّ قـــاتـــلـي
فـــلـــمـــاذا أَودّه....

هذا، وقد طُبع ديوان ابن الساعاتي في بيروت طبعاً جميلاً نقياً، وشُكّلت أبياته تشكيلاً قليلاً لضرورة الضبط، وجاء في هوامش الصفحات تحقيقات لرواية كثير من الأبيات بالمقابلة بين نسخ الديوان الأربع. أخذ الله بيد العلماء العاملين، وجزى الله الأستاذ المقدسي عن الأدب والعلم خيراً.

إبراهيم عبدالفتاح طوقان

في ١ آذار، سنة ١٩٣٩

****